مجالات إسهام المرأة المسلمة في العلوم والتربية
(الأمومة ـ العلوم ـ الأوقاف)

د/ عقيلة حسين
جامعة الجزائر

المقدمة

جاء القرآن الكريم برسالة سامية ومقاصد كبرى، منها طاعة الله وعمارة الأرض وبناء حضارة. ومقومات هذه الأمور العلم الذي صدح به القرآن الكريم في أول سورة نزلت وهي : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...**﴾[1] فكانت الإستجابة من الرجال والنساء استجابة إيمان وتصديق، واستجابة تعلم ومساهمة في الحركة الدعوية والخدمة الإنسانية. وإذا كانت الحضارة العربية الإسلامية، حضارة لها مقوماتها وأهدافها، وإذا كانت هذه الحضارة قد وصلت إلى أصقاع الدنيا ونشرت الإسلام العظيم والأخلاق والعلم، فإنّ المرأة ساهمت بنصيب كبير، وكان لها دور فعّال في بناء هذه الحضارة العظيمة بكل ما تملك من علم، وخلق ومال وحسن تربية لأبنائها، واهتمامها بشؤون وهموم أمّتها. ساهمت مساهمة فعالة من الناحية العلمية منذ عصر النبوة إلى الوقت الحالي، فبرزت نساء عالمات وفقيهات، ومحدثات، ومفتيات، وأديبات، وشاعرات وفي مجالات الطب والصيدلة والعمل الخيري، والكتابة والدعوة والتعليم،وبناء المداس ودور العلم، ووقف الكتب والمصاحف وغيرها.

وقد يختفي المهاجمون للإسلام والمطالبون بحقوق المرأة على النمط الغربي وراء التاريخ، وبإيجاد تسويغ ماضوي للحال الذي وجدت المرأة العربية نفسها عليه في القرون المتأخرة، وهكذا يعودون للبحث عن مقدمات الإستبداد وظلم الواقع على المرأة في التراث، وكأنهم ينسون أن التاريخ متعدد وليس متماثلاً مكرراً، فالتاريخ لا يعرف الثبات فهو متغير من حال إلى حال، فالتراث بهذا المعنى: تراثات متعددة وأحياناً

1- سورة العلق، الآية1.

متزامنة في تعددها وتناقضها تماماً كما هو الحال في الحاضر من حيث تعدد التيارات والبؤر والتوجهات هذا من جهة، ومن جهة أخرى هذا المسوغ الماضوي ليس شاملا لكل حقب التاريخ الإسلامي وليس صحيحا بدليل وجود عدد كبير من النساء لم يكنّ حريما بالمفهوم السلبي للكلمة، بل كن حرائر تبنين بيوتا وأسرا وحضارة، وساهمن في خدمة الإنسانية من كل النواحي العلمية والثقافية والإجتماعية الخيرية.

فهل كان للمرأة اهتمام ونبوغ في العلوم والفنون؟ وفيما اشتهرت؟ وما هي صور الإسهام العلمي للمرأة؟ وما هي مجالاته ؟وما أضافت المرأة المسلمة للإنسانية وللحضارة ؟ وما هي حواضر العالم الإسلامي التي نبغت فيها المرأة؟ وما هو سر نبوغ الكثير من النساء؟

وما هي الدوافع التي جعلت النساء يساهمن بشكل كبير في الخدمة الإنسانية؟ ولماذا تدهور حال المرأة،وأصبحت الأمية ضاربة في أوساط النساء في الكثير من المجتمعات؟ وما هي الأسباب التي حدّت من فعالية المرأة المسلمة في ميدان العلوم والمشاركة الإجتماعية في الكثير من المجتمعات الإسلامية عبر التاريخ إلى الآن؟.

المبحث الأول: التأصيل الشرعي لإسهام المرأة في العلوم

من سماحة الإسلام وتكريمه للمرأة، لم يفرق بين تعليمها وتعليم الرجل والنصوص كثيرة من هديه قولا وفعلا. فجعل « طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1]

فالخطاب الشرعي حث على التعلم والتحصيل العلمي، وهذا الخطاب عام يشمل الذكور الإناث مع مراعاة الضوابط الشرعية المعروفة عند أهل العلم، المتعلقة بالفروق بين الجنسين.

وقد اهتم المصطفى بتعليم النساء وأولاه عنايته، حيث سألت النساء النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهن يوماً يعلمهن فيه، فأجابهن لذلك فعن أبي سعيد الخدري[2] قال : « قالت النساء للنبي صلى الله عليه وسلم: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً يلقهن فيه، فوعظهن وأمرهن، فكان فيما قال لهن: ما منكن إمرأة تقدم ثلاثة من ولدها، إلا كان لها حجاباً من النار، فقالت إمرأة: واثنين، فقال: واثنين»[3]، فكانت النساء تحضر مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم، ويصلين الصلوات بالمسجد، ويحضرن الجمعة

1 - صحيح سنن ابن ماجة، الألباني، باب فضل العلماء، والحث على العلم:1/ 44 رقم الحديث 183

2 - انظر ترجمته في الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني ـ تحقيق:علي محمد البجاوي دار الجيل ـ بيروت ـ ط1 ـ 1412 هـ ـ 8 7/ 174 ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ابن عبد البر ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ مطبعة نهضة مصر ـ الفجالة 1/ 534

3 - صحيح البخاري ـ كتاب العلم ـ باب هل يجعل للنساء يوماً على حدة في العلم: 1/ 35

والأعياد فيسمعن ويحفظن، كما كانت الكثيرات من النساء في عصر النبوة يعرفن القراءة والكتابة، ولعل أول إمرأة عرفت الكتابة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم : هي الشفاء بنت عبد الله، المهاجرة القرشية العدوية[1]، ومنها تعلمت حفصة أم المؤمنين[2] الكتابة بإقرار من الرسول .

فعن الشفاء بنت عبد الله قالت: « دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا عند حفصة فقال لي: ألا تعلمين هذه رقية النملة (النملة قروح تخرج في الجنبين) كما علمتيها الكتابة؟»[3].

وأول مثال على حرص المرأة المسلمة على التعلّم، نراه ماثلاً في زوجات النبي صلى الله عليه وسلم وبناته، فها هي عائشة أم المؤمنين[4] رضي الله عنها، قد اختارها الرسول صلى الله عليه وسلم زوجة له لتكون معلمة لنساء العالمين قاطبة فرباها تربية علمية تثبت اهتمام الإسلام بتعليم النساء، فقال الزهري[5] : « لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أمهات المؤمنين، وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل»[6].

وهذا الحرص منه نابع من توجيه القرآن الكريم. فقد قال الله تعالى: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَامُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُوتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلَائِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[7]، وقال في آية أخرى: ﴿ **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوُ انثى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَأُوْلَائِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا** ﴾[8].

يقول الإمام الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية « يقول اللَّه لَهم: إنَما يدخل الجنَّة وَينعَم فِيهَا فِي الآخرة من يعمل من الصَالحات من ذكوركم وإناثكم، وذكور عبادي وإناثهم وهو مؤمن بي وبرسولي محمَّد، مصدق بوحدانيَتي، ونبوَة محمّد وبما جاء به من عندي لا أنتم أيها الْمشركون بي المكذبون رسولي»[9].

---

1 - أنظر ترجمة الشفاء في الاستيعاب 1/ 604 - الإصابة 7/ 727

2 - أنظر ترجمة حفصة في الاستيعاب 1/ 581 - الإصابة7/ 581

3 - أخرجه أبو داود ـ سنن ـ كتاب الطب ـ باب ما جاء في الرقى ـ 2 /403 ـ رقم 3887. وقال الشيخ الألباني: صحيح وأحمد في مسند الأنصار ـ حديث الشفاء ـ ـ 6 / 372 ـ رقم27140 علق شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات رجال الشيخين غير إبراهيم بن مهدي فمن رجال أبي داود وقد وثقه أبو حاتم وابن قانع وذكره ابن حبان في الثقات وقال ابن معين: كان رجلا مسلما لا أراه يكذب ونقل العقيلي عن ابن معين قوله: جاءنا بالمناكير وقال الأزدي: له عن علي بن مسهر أحاديث لا يتابع عليها وقال الحافظ في التقريب: مقبول. والشفاء بنت عبد الله روى لها البخاري في الأدب المفرد وأبو داود وقد اختلف في وصله وإرساله.

4 - أنظر ترجمة عائشة في الاستيعاب 1/ 608 الإصابة 4/ 349 - 350.

5 - انظر ترجمة الزهري في حلية الأولياء جـ3 ص 360 ـ سير أعلام النبلاء جـ 5ص 326 ـ وفيات الأعيان جـ4ص 177.)

6 - الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني: 4/ 349 - 350.

7 - سورة التوبة، الآية71.

8 - سورة النساء، الآية 124

9 - تفسير الطبري 4، الآية 295

عندما نص القرآن الكريم على أن المرأة مكلفة بطاعة الله، وسائر العبادات من الامتثال للأوامر، والبعد عن النواهي وبالأمر بالمعروف والنـهي عن المنكر، مثلها مثل الرجل، استلزم أن تكون ذات علم وفقه، فمناط التكليف العلم، وشرط القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر العلم والفقه.

وهناك نصوص كثيرة تدل على هذا في القرآن والسنة، وأقوال العلماء لا تخرج عن هذا فعندهم الخطاب يعم النسـاء والرجال إذا لم ترد قرينة، والمساواة في طلب العلم ظاهرة في النصوص مع مراعاة الضوابط الشرعية، قال الإمام البخاري: فبدأ بالعلم ـ والخطاب وإن كان للنبي، فهو يتناول جميع أمته[1].

وقدْ فسر العلماء من في قوله : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[2] بأنها شرطية تعم. جاء في الكوكب المنير« من شرطية وهي تعم الذكور والإناث بلا نزاع يذكر»[3].

وفسر حديث «إنما النساء شقائق الرجال»[4] بالمساواة بينهم في الخطاب الشرعي.

قال الخطابي في معالم السنن: « أي نـظائرهم، وأمثالهم في الخلق، والطباع فكأنهن شققن من الرجال، وفيه من الفقه... أن الخطاب إذا ورد بلفظ الذكور كان خـطابا للنساء إلا مواضيع الخصوص التي قامت أدلة التخصيص فيها»[5].

وقال ابن حزم: « ولما كان رسول الله مبعـوثا إلى الرجال، والنساء بعثا مستويا وكان خطاب الله ـ تعالى ـ وخطاب نبيه للرجال والنساء واحدا، لم يجز أن يخص بشيء من ذلك الرجال، دون النساء إلا بنص جلي أو إجماع»[6].

وقال مدعما لما سبق: « وقد تيقنا أن رسول الله مبعوث إليهن كما هو للرجال، وأن الشريعة التي هي شريعة الإسلام لازمة لهن كلزومها للرجال، وأيقنا أن الخطاب العبادات والأحكام متوجه إليهن ، كتوجهه إلى الرجال، إلا ما خصهن أو خص الرجال منهن دليل،وكل هذا يوجب أن لا يفرد الرجال دونهن بشيء قد صح اشتراك الجميع فيه إلا بنص، أو إجماع»[7]

1 - فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ـ دار المعرفة ـ بيروت، 1379هـ ـ ج1 / 160 ـ مسند أحمد ج6/256, برقم 26238
2 - صحيح مسلم ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ ج2 / 718 برقم 1037.
3 - **شرح الكوكب المنير** ـ المسمى مختصر التحرير أو المختبر المبتكر شرح المختصر في أصول الفقه ـ محمد بن أحمد الفتوحي الحنبلي المعروف بابن النجار ـ تحقيق محمد الزحيلي ـ ونزيه حماد مكتبة العبيكان ـ الرياض 1993 ـ ج3 /240.
4 - أخرجه ابن الجارود في المنتقى, ج1/ برقم 90 ـ أبو عوانة في مسند ـ دار المعرفة، بيروت 1998 ـ تحقيق أيمن بن عارف الدمشقي, ج1/ 244 برقم 832 ـ وسنن الترمذي ج1/ 190 ـ سنن الدرامي ج1/ 215 برقم 764 ـ سنن أبي داوود، ج1 /61 برقم 236
5 - معالم السنن ـ الخطابي ـ جـ1/ 161.
6 - الإحكام في أصول الأحكام, لابن حزم الظاهري ج3/ 341 ـ 342.
7 - نفس المصدر

والمرأة مثل الرجل لن تستطيع القيام بدورها في المجتمع ما لم تتعلم أمور دينها ودنياها.

ولقد حثّ الإسلام الرجال والآباء على تعليم الفتاة وتربيتها. قال رسول الله : « أيما رجل كانت عنده وليدة، فعلمها فأحسن تعليمها ،وأدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران»[1].

وهذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لا تكتفي بالتعلم والسماع، بل تثني وتمدح من تحرص من النساء على السؤال والتعلم حيث قالت: « نعم النساء ،نساء الأنصار، لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين»[2]

ولم تمدح النساء الحريصات على التعلم من نساء مثلهن، بل زكهن كبار علماء الجرح والتعديل، قال الحافظ الذهبي: « لم يؤثر عن إمرأة أنها كذبت في حديث»[3]

وقال الشوكاني: « لم ينقل عن أحد من العلماء بأنه رد خبر إمرأة لكونها إمرأة. فكم من سنة قد تلقتها الأمة بالقبول من إمرأة واحدة من الصحابة»[4].

هذه بعض الأدلة من القرآن والسنة وأقوال العلماء، في وجوب تعليم المرأة وتعلمها. والخطاب لها ولأوليائها وتثبت هذه الأدلة كذلك سرعة استجابة المرأة للتعلم والنبوغ، عدم التقيد بمعرفة أمور تخصها في دينها فقط، بل أثبتت حرصا كبيرا، وخاصة في الحديث على سماع ورواية مسائل كثيرة لا تتعلق بشؤونها كإمرأة فقط. وكتب السنة توضح ذلك.

المبحث الثاني: الأمومة إسهام كبير في العلوم والخدمة الإنسانية

قد تكون الأمومة خاصية بيولوجية، لكل إمرأة تنجب أطفالا، لكن الحديث قد يصبح قاصرا وظالما للمرأة التي تنجب فقط، بل هي تربي وتعلم وتلقن المبادئ واللمسات الأولى لشخصية ذلك الطفل الذي يكبر،ويتطور في سائر الأيام، فيصبح عالما، ومبدعا، ويساهم في بناء الحضارة وتطور المجتمع وخدمة الإنسانية.

ويكفي المرأة أن تقوم بهذا الدور العظيم، فمتى أنجبت وربت عظماء ،فقد حققت نجاحا جبارا وعظيما لا يتم من دونها، ولا يعوضها فيه أحد.

1 - رواه البخاري. ـ كتاب النكاح ـ باب اتخاذ السراري ومن أعتق جاريته ثم تزوجها ـ 5 / 1955 رقم 4795
2 - أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الحيض 1 / 260 ـ رقم 66
3 - مقدمة كتاب ميزان الاعتدال في نقد الرجال ـ الإمام الذهبي.
4 - نيل الأوطار 8: 122.

فلو اقتصر البحث على سرد و تحليل و دراسة دور الأمومة في تاريخ العلوم والفنون عند المسلمين والخدمة الإنسانية لأجرأنا ذلك. ولكن المرأة المسلمة لم تساهم بأمومتها فقط، بل ساهمت بعقلها وعلمها ومالها ووقتها في تطور وبناء الحضارة، وللأم تبجيل عظيم في نصوص الشرع لأهمية وعظمة دورها في تربية الطفل.

في السنوات الأولى من عمر الإنسان تتشكل ملامح شخصيته، وتغرس بذور صفاتها الأساسية، لذلك يسميها خبراء التربية بالسنوات التأسيسية، وفي تلك السنوات لا أحد أقرب إلى الطفل وأشد التصاقاً به من الأم، وبذلك تكون هي الجهة الأكثر تأثيراً في تشكيل شخصيته وصناعتها. ويتيح لها الارتباط العضوي والنفسي بينها وبين الطفل أكبر فرصة للتأثير والبناء الثقافي والمعرفي في وقت يبدو العالم غريباً على الطفل حينما يتفتق إحساسه ويبدأ وعيه، وتكون الأم هي أقرب شيء إليه ينظر إلى ما يحيط به، ويتعامل معه من خلالها، فمنها يتعلم اللغة والكلام، وبواسطتها يتفهم ما يدور حوله. والأم الواعية تقوم بدور كبير في تنمية معارف طفلها وزرع حب المعرفة في نفسه، وتربيته على التفكير، وتقوية مداركه العلمية، عبر التحادث معه، وإثارة اهتماماته وتشجيعه على الاستفهام والبحث،وخاصة أن حالة الفضول والسؤال عن كل شيء حالة طبيعية تحصل عند الطفل مبكراً، بينما يفترض أن يتيح فضول التساؤل عند الطفل فرصة مناسبة لتنمية معارفه وتشجيع قدراته الذهنية، والأم صاحبة الدور الأكبر في هذا المجال لتتشكل ثقافته ومعارفه وفق توجيهات منسجمة مع نظام القيم الديني والإجتماعي. فللأمومة دور التربية والقيام على شؤون الصغار المادية والبناء المعرفي الثقافي والتوجيه السلوكي.

هذا ما تقوله النظريات والدراسات الحديثة في علم النفس وعلوم التربية، وقال الشاعر الإنجليزي جورج هربرت: «تستطيع الأم الفاضلة أن تؤدي مهمة مائة أستاذ من أساتذة المدارس».

الأمومة أرقى وظيفة في المجتمع البشري، فهي ترتبط بإنتاج الإنسان نفسه وصنع شخصيته، وذلك إنجاز لا يدانيه أي إنجاز.

وبدراسة حياة العظماء في نشأتهم والتأمل في ظروف تربيتهم العائلية، يكشف في غالب الأحيان عن دور الأمهات في صناعة شخصيات هؤلاء العظماء.

قد قامت المرأة المسلمة عبر التاريخ بفطرتها السليمة وتدينها وحسن معرفتها بهدي الإسلام بدور كبير في حياة الأبناء العظماء في مختلف العلوم.

ونذكر هنا على سبيل المثال نموذجا رائعا للأمومة ومساهمتها في العلوم وهذا النموذج هو: أم الإمام الشافعي رحمه الله، فقد ذكرت كتب التراجم والتاريخ عظمة أم الإمام الشافعي الذي تربى يتيما وكيف أنها رأت رؤيا وفسرت لها بأن ولدها سيكون عالما، فسعت إلى تنمية هذا الإستعداد الذي كان فيه وعلامات النبوغ والتميز.

«محمد بن إدريس القرشي المطلبي...وأمه أزدية وقد رأت حين حملت به، كأن المشترى خرج من فرجها ،حتى انقض بمصر، ثم وقع في كل بلد منه شظية وقد ولد الشافعي بغزة، وقيل بعسقلان وقيل باليمن سنة خمسين ومائة. ومات أبوه وهو صغير فحملته أمه إلى مكة، وهو ابن سنتين لئلا يضيع نسبه، فنشأ بها وقرأ القرآن، وهو ابن سبع سنين، وحفظ الموطأ وهو ابن عشر، وأفتى وهو ابن خمس عشرة سنة وقيل ابن ثماني عشرة سنة...وعنى باللغة والشعر وأقام في هذيل نحوا من عشر سنين وقيل عشرين سنة، فتعلم منهم لغات العرب وفصاحتها وسمع الحديث الكثير على جماعة من المشايخ والأئمة، وقرأ بنفسه الموطأ على مالك من حفظه، فأعجبته قراءته»[1].

وجاء في كتاب تهذيب الكمال: « أن الشافعي قال: ولدت بعسقلان فلما أتى علي سنتان حملتني أمي إلى مكة، وكانت نهمتي في شيئين، الرمي وطلب العلم، فنلت من الرمي حتى كنت أصيب من عشرة عشرة، وسَكَتَ عن العلم، فقلت له أنت والله في العلم أكثر منك في الرمي»[2]

وجاء في رواية أخرى: « قال محمد بن إدريس الشافعي: ولدت باليمن فخافت أمي علي الضيعة وقالت الحق بأهلك فتكون مثلهم فإني أخاف أن تغلب على نسبك، فجهزتني إلى مكة فقدمتها، وأنا يومئذ بن عشر أو شبيه بذلك، فصرت إلى نسيب لي، وجعلت أطلب العلم فيقول لي: لا تشتغل بهذا، وأقبل على ما ينفعك، فجعلت لذتي في هذا العلم وطلبه حتى رزق الله منه ما رزق. الشافعي يقول حفظت القرآن وأنا بن سبع سنين وحفظت الموطأ وأنا بن عشر سنين»[3].

فهذه الروايات تدل على وعي الأم واهتمامها بنبوغ ابنها وتعلمه وعدم ضياع أصله.وقد شجع الكثير من العلماء والمصلحين وظيفة الأمومة، وجعلوها هي الأساس وما عداها فهو استثناء.يقول عبد الحميد بن باديس رحمه الله: «إننا نريد المرأة التي تلد لنا طيارا لا التي تطير بنفسها»[4].

1 - البداية والنهاية - 10 / 251
2 - تهذيب الكمال - 24 / 361.
3 - تهذيب الكمال - 24 / 362 - تهذيب التهذيب - 9 / 24
4 - عبد الحميد ابن باديس وآثاره - عمار طالبي - دار الغرب الإسلامي - بيروت - سنة 1403هـ - 1982م - 2/136

والشاعر الكبير حافظ إبراهيم مجَّد الأم وشأنها ووظيفتها، وأن تعليمها لا لتكون عالمة بل لتكون أما صالحة، ومدرسة.

مالي بتربيـة الفتاة فإنها * * * في الشرق علة ذلك الإخفاق

الأم مدرسة إذا أعددتها * * * أعددت شعبا طيب الأعراق

المبحث الثالث: المرأة المسلمة وطلب علم

بناء على نصوص كثيرة تخص المرأة وتكلفها، بطلب العلم وخاصة العلم الشرعي، لم تتأخر النساء في تلبية النداء للإيمان والدخول في دين الله أفواج،ومنه الإقبال على النهل من هذا النبع الصافي علوما كثيرة على رأسها القرآن، والحديث والفقه، يشجعهن في ذلك الرجال بالسماح لهن بالخروج إلى المسجد وحضور الجماعة والسؤال. وصور طلب العلم كثيرة في التاريخ توسع في ذكرها علماء الحديث.

المطلب الأول: المرأة والتعلم

سبق التطرق إلى النصوص التي تأصل لعدم إقصاء المرأة من حمل مشكاة النبوة، والتي تتجسد في الإيمان والتعلم ونشر العلم، وتجسد تعلم المرأة ابتداء من الجيل الأول للنساء القدوة المؤمنات الصالحات العالمات المعلمات، إلى العصور الزاهية للعطاء والإشعاع العلمي النسائي والحضور الاجتماعي الايجابي،والمساهمة في البناء الحضاري الذي شهد له العدو قبل الصديق، وشهد به من هم خارج هذه الحضارة، تقول المستشرقة الألمانية سغريد هونكه: « ظلت المرأة في الإسلام تحتل مكانة أعلى وأرفع مما احتلته في الجاهلية وسار الركب، وشاهد الناس سيدات يدرسن القانون، والشرع، ويلقن المحاضرات في المساجد، ويفسرن أحكام الدين، فكانت السيدة تنهي دراستها على يد كبار العلماء ثم تنال منهم تصريحا لتدرس هي بنفسها ما تعلمته فتصبح أستاذة وشيخة، كما لمعت من بينهن أديبات وشاعرات والناس لا تبدي في ذلك غضاضة أو خروجا عن التقاليد»[1]

ومن صور التعلم التي عرفت بها المرأة في التاريخ منذ عصر النبوة:

1 ـ المطالبة بمجلس علمي من رسول الله صلى الله عليه وسلم خاص بهن فقط.

2 ـ حرص أمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ على العلم والتلقي والسماع.

1 ـ شمس العرب تشرق على الغرب ـ كتاب شهير لسغريد هونكه ـ تبين فيه فضل الحضارة العربية على الحضارة الغربية وهذا الكتاب ترجم إلى كل اللغات وبيع بنسخ كثيرة وترجم كذلك إلى اللغة العربية ص46

3 ـ الجلوس إلى أمهات المؤمنين وارتياد مجالسهن، وخاصة الصحابيات الصغيرات والتابعيات.

4 ـ الرحلة من الشام إلى بغداد والبصرة في طلب العلم، وخاصة الرحلة إلى حجرات أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

5 ـ مجالس العلم داخل الأسر، وسماع المرأة من الوالد العالم والزوج والأخ.

6 ـ عقد مجالس نسائية علمية للسماع والتعلم.

7 ـ مواسم الحج وفرصة اللقاء والتعلم والتحمل والتبليغ[1].

يقول الشيخ محمد الغزالي في هذا الصدد: « لقد عدّ الإسلام الأنوثة جزءًا من الحقيقة الإنسانية، التي جاء لتزكيتها، وراعى المجتمع العربي على عهد السلف الأولين، المرأة تتردد على المسجد من الفجر إلى العشاء، وتتعلم الدين كما يتعلم الرجل، وقد تقاتل مع المقاتلين، وقد تداوي الجرحى، وقد تدفن الموتى، وتأمر وتنهى وتنصح...»[2]

هذه الطرائق، وصور التلقي بالنسبة للمرأة تواترت عبر العصور والأمصار.وفي بعض المراحل التاريخية والحواضر الإسلامية، تطورت طرق التعليم والتلقي، والتبليغ وأصبح للتعليم مراحل، وكان للمرأة منها نصيب.

المرحلة الأولى: وهي تعليم المرأة الكتابة، والقراءة والحساب، ويذكر المترجمون وأصحاب الطبقات الكثيرات منهن[3].

المرحلة الثانية: وفيها التوسع في حفظ القرآن ودراسة الفقه، والنحو والأصول والحديث.

المرحلة الثالثة: وهي العليا وهي الإجازة والإستدعاء.

قال السخاوي: « فاطمة بنت محمد بن الصائغ تدربت بوالدها على القراءات إفرادا وجمعا وقدم بها القاهرة ،فقرأت على الشهاب السكندري، والزين جعفر، وبرعت في القراءات مع استحضار الشاطبية وفهم جيد تبدي مباحث وفوائد حسنة...»[4].

1 ـ لقد فصلت في صور التحمل والتلقي الباحثة أمال بنت الحسين في كتابها المرأة والحديث ـ كتاب الأمة فليراجع.
2- سر تأخر العرب والمسلمين ـ محمد الغزالي ـ دار النهضة ـ مصر ـ ط9 ـ 2007 م ص 20
3 ـ الضوء اللامع للسخاوي ـ كتب الطبقات لابن حجر ـ تاريخ دمشق لابن عساكر ـ كتب الذهبي ونفح الطيب للمقري والصلة لابن بشكوال وأعلام النساء لعمر رضا كحالة والأعلام للزركلي وغيرها.
4 ـ المرأة المصرية في القرن 9هـ من خلال كتاب الضوء اللامع للسخاوي ـ رسالة ماجستير إعدادا مصباح أحمد مصباح هيبة ـ إشراف حسين يوسف دويدار ـ كلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر ـ قسم تاريخ وحضارة ـ 1994م ـ مخطوط ـ ص82

المطلب الثاني:المرأة المسلمة والكتابة

لم يثبت تاريخيا أن النساء المسلمات لم يتعلمن الكتـابة والقراءة، بل الثابت أنّهن كنّ يعرفنها من الجاهلية، وليس في الإسلام الذي ركز كثيرا على العلم، وتشتهر أم المؤمنين حفصة ـ رضي الله عنها ـ بذلك وغيرها من النساء.

والكتابة من المظاهر الحضارية التي عني بها المسلمون منذ صدر الإسلام، وشهد الخط العربي تطورًا خلال عصور الإسلام الأولى، ومتزامنًا مع النهضة الكبرى التي شهدتها الأمة الإسلامية في مختلف جوانب الحياة، وحظي الخط باهتمام متميز لكونه الوسيلة التي حفظت لنا القرآن الكريم، وبه دوِّن وانتشر وحُفظت كل العلوم الشرعية وغيرها.

وأدلة تعليم المرأة الكتابة كثيرة في السنة المطهرة، ورواتها ثقاة، ومن ذلك الحديث الذي روته الشفاء بنت عبد الله، حيث قالت: « دخل عليّ النبي وأنا عند حفصة، فقال: ألا تُعَلِّمِين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة»[1]

وقد وردت أقوال على لسان السلف تدعو لتعلم الكتابة وضرورة إتقانها، منها قولهم: « أكرموا أولادكم بالكتابة فإن الكتابة من أهم الأمور، ومن أعظم السرور، وعليكم بحسن الخط فإنه من مفاتيح الرزق».

وكان للمرأة المسلمة حضورها في تعلم هذا الفن منذ صدر الإسلام، فيذكر لنا المؤرخون مجموعة من النساء ممن عُرفن بحسن الخط وإتقان الكتابة في تلك الفترة منهن: عائشة بنت سعيد بن أبي وقاص وكريمة بنت المقداد، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وهند بنت أبي سفيان، والشفاء بنت عبد الله العدوية القرشية التي تعلمت الكتابة من معاوية ويزيد ابني أبي سفيان، وكانت تكتب في الجاهلية[2].

وتستمر مسيرة الخط، وتبرز في كل مرحلة تاريـخية بعض الخطاطات اللواتي جوَّدن الخط وعُرفن بحسن كتابتهن، وبعضهن درسن على يد آبائهن أو أزواجهن، فيذكر أن الفقيه أحمد بن علي الفاسي دخل مصر مع أولاده، فصادف مجاعة فاشتغل بالنسخ وعلم زوجته وابنته الكتابة، فكانتا تكتبان مثل خطه ونسختا الكثير من الكتب بالأجرة.واستهوى فن الخط «مريم بنت مصطفى» فزاوجت بين الحرف واستخدامه كوحدة زخرفية بشكل مبسط، ومن أشهر ما كتب بخطها كتاب مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي.

1 ـ أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن الشفاء، أنظر: مسند الإمام أحمد، حديث الشفاء بنت عبد الله رضي الله عنها: 6/372، وصححه الألباني، أنظر، صحيح الجامع الصغير:1/2/332، سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني: 1/1/129، رقم 178.
2 ـ أنظر تفصيل ترجمتهن في كتاب النساء من الإصابة ـ والاستيعاب ـ وطبقات ابن سعد

وممن اشتهرن بحسن خطهن «سيدة بنت عبد الغني» من غرناطة، ولدت بتونس في أوائل القرن السابع الهجري، اعتنى والدها بتربيتها وتعليمها ليؤهلها لحرفة تعليم النساء فتضمن بذلك رغد العيش. حفظت القرآن، وتلقت بعض العلوم، وجودت الخط، ونسخت بخطها كتبًا كثيرة. أقعدت فلزمت دارها ثلاثة أعوام وأنابت في تعليم ابنتها، توفيت سنة 647 هـ، ويروى أنها كانت تتبرع بكل ما تتقاضاه من أجر تعليمها وما ينالها من الجوائز الملوكية للفقراء وأسرى المسلمين[1].

ومن الذين اشتهروا بحسن الخط وجودته وليس بالكتابة فقط، عائشة بنت أحمد القرطبية التي قال عنها المؤرخون: «...إنه لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يعادلها علمًا وفهمًا وأدبًا وعزًا، كانت تمدح ملوك الأندلس، حسنة الخط، تكتب المصاحف والدفاتر وتجمع الكتب، وتعنى بالعلم، ولها خزانة علم كبيرة، توفيت سنة 400 هجرية». وقال علماء المغرب في وصف عائشة: « كانت أديبة أريبة فصيحة كان لها خط حسن، كتبت يتيمة الدهر بخطها في ثمانية عشر جزءًا، وهي محفوظة ببجاية بالمغرب»[2] وفيهن من كانت كاتبة للخليفة «مزنة: كاتبة الخليفة الناصر لدين الله، كانت حاذقة في أخط النساء توفيت سنة ثمان وخمسين وثلاث مائة للهجرة...»[3].

نستنتج من كل هذا أنّ معظم النساء المسلمات في العصور الإسلامية السابقة وفي مختلف الحواضر، كنّ متعلّمات يجدن القراءة والكتابة حرائر وإماء، لم يشتهرن أو لم يترجم لهن.

المطلب الثالث: المرأة المسلمة والتخصصات العلمية

تكاد المصادر التاريخية وكتب التراجم والطبقات في التاريخ الإسلامي، تجمع على أن المرأة المسلمة تعلمت علوما شتى، وأتقنت بعضها تخصصت في بعضها، حتى أصبحت لا تعرف إلا بذلك الفن الذي أتقنته، ويعود ذلك إما لاهتمامات الشخصية أو بتوجيه من الأهل: الوالد، أو الزوج. وأكثر العلوم التي كانت محل اهتمام المرأة عبر العصور التاريخية، ـ عصر النبوة، الخلفاء الراشدين، الأموي، العباسي مماليك ـ بالمشرق والمغرب، كانت العلوم الشرعية: القرآن الكريم، الحديث النبوي ،الفقه، التفسير،القراءات العقيدة،والتصوف، العلوم اللّغوية من نحو وصرف وبلاغة والتاريخ.

1 - تراجم النساء المذكورات في المرأة والكتابة توجد في كتاب الصلة ـ 1 /225

2 - أنظر ترجمتها في الصلة ـ 1 /225.وقد ترجم ابن بشكوال في كتابه هذا لعشرات النساء اللواتي اشتهرن بالكتابة والخط الحسن ونسخ الكتب والعلم والأدب في الأندلس والمغرب.أنظر 1/225.....

3 - المصدر نفسه ـ 1/225 وبعدها.

ويتضح هذا جليا عند تصفح كتب التراجم والطبقات، وذلك من خلال تلك الإجازات التي حصلت عليها المرأة من الشيوخ، ومن خلال ما تعلمته وروته من كتب ومتون، هذا بالنسبة لعلوم الشريعة واللّغة العربية،ويذكر العلماء أن النساء تخصصن في دراسة من تراجم الصحابيات إلى التابعيات إلى القرون المتأخرة...[1] مجالات أخرى من العلوم كالطب والصيدلة والحساب والكيمياء، إلا أن المصادر قليلة في الترجمة لهن.

فمن أمثلة اهتمام المرأة بالطب وممارستها له وإن كان بأساليب بسيطة، فعن إمرأة من بني غفار قالت: « أتيتُ رسول الله في نسوة من بني غفار، فقلنا: يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى خيبر فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا. فقال: على بركة الله، قالت: فخرجنا معه...»[2].

ولا يمكن أن تمارس هؤلاء النسوة التطبيب ومداواة الجرحى إن لم يكن تعلمنه على يد العارفين به.

المطلب الرابع: المرأة المسلمة وأماكن التعلم

المسجد أول مؤسسة تعليمية في التاريخ الإسلامي، حيث كان مكان العبادة والصلوات والتعرف بين المسلمين والتآزر، والإجتماع والتشاور، وبالتالي كان أول مدرسة ارتادتها النساء للتعلم هو المسجد منذ عصر النبوة.كما كانت حجرات أمهات المؤمنين منارات للإشعاع العلمي والثقافي، فكن يستقبلن النساء اللواتي يسألن عن أمور دينهن أو يتحملن الحديث والعلم الشرعي بالسند أو يتعرفن عن أمور تخص النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أخذ العلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ لوحدها حوالي (299) من الصحابة والتابعين منهم (67) إمرأة، وهؤلاء كلهم يقصدونها في بيتها الذي كان مدرسة وجامعة لمختلف العلوم، أما أم سلمة التي اشتهرت بالفقه، فقد روى عنها كثير من الصحابة والتابعين بلغوا حوالي (101) منهم (23) إمرأة.

وقد دأبت النساء بعد الصحابيات أن تكون بيوتهن منارات للعلم، بعقد مجالس خاصة بالنساء للعلم والفقه والحديث، كما كانت معظم بيوت العلماء أماكن لتنهل منها المرأة البنت أو الزوجة، أو الأخت العلم

1 ـ أنظر على سبيل المثال بعض كتب التاريخ والتراجم: الاستيعاب 1/573 وبعدها ـ أسد الغابة 1/1307 وبعدها ـ الإصابة 8/3 وبعدها ـ تهذيب الكمال 35/123 وبعدها ـ تهذيب التهذيب 12/426 وبعدها الضوء اللامع، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ـ كتاب الثقات لابن حبان ذكر في كل طبقة عددا من النساء المحدثات خاصة طبقات الشافعية للسبكي ـ طبقات ابن سعد ـ الصلة 1/225و بعدها ـ المعجم المؤسس للمعجم المفهرس لابن حجر ـ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب الذي خصص فيه مؤلفه المقري عددا كبير من النساء بالترجمة وهن أديبات وشاعرات

2 ـ أخرجه أبو داود ـ كتاب الطهارة ـ باب المستحاضة يغشاها زوجها ـ 1/136 ـ رقم 313 ـ وأحمد في مسند الأنصار ـ حديث إمرأة من بني غفار ـ 6/380 ـ رقم 27180

من الرجل العالم بالبيت، وتطورت أماكن التعلم مع تطور الحضارة الإسلامية واختصاص كل مؤسسة بمجال معين فأصبح ما يسمى بالمدارس، وكان للنساء مدارس خاصة بهن للتعلم وخاصة في الحواضر الكبرى ،بغداد والشام ومصر والأندلس والمغرب، ويدل هذا على كثرة أوقاف النساء على المدارس ولا يعقل أن توقف إمرأة على مدرسة لا تخصص جزء منها أو جناح منها لتعليم للبنات ومن أماكن التعليم كذلك الزوايا والربط. « إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين، فاستحكمت فيها الصنائع، وتفننت ومن جملتها تعليم العلم وأكد ذلك فيها، وحفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين... فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الأوقاف...»[1].

ويذكر الدكتور عبد الهادي التازي في كتابه «المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي» أن العديد من مدارس البنات التي كانت تعرف بـ «دور الفقيهات» كانت منتشرة في الكثير من أحياء المغرب، وأن بعض الوجيهات كن يشرفن عليها، انطلاقا من رغبتهن في تعميم المعرفة ونشر الخير والفضيلة في المجتمع.

المبحث الرابع: المرأة المسلمة والنبوغ العلمي لخدمة الإنسانية

ولم يقتصر عطاء المرأة المسلمة على الإيمان والهجرة والتضحية والتعلم فقط، بل امتد هذا العطاء إلى المجال العلمي والتعليمي، فظهرت الفقيهة والمُحدثة والمفتية، التي يقصدها طلاب العلم، ويأخذ عنها بعض أساطين العلماء، وتُستفتى في بعض الأمور التي تخص عامة المسلمين، وظهر من العالمات المسلمات من تعقد مجالس العلم في كبريات المساجد الإسلامية، ويحضر لها الطلاب من الأقطار المختلفة، وعُرف عن بعض الفقيهات والمحدثات المسلمات أنهن أكثرن من الرحلة في طلب العلم إلى عدد من المراكز العلمية في مصر، والشام ،والحجاز، والمغرب ،والأندلس، حتى صرن راسخات القدم في العلم والرواية، وكان لبعضهن مؤلفات وإسهامات في الإبداع الأدبي.

المطلب الأول: إسهام المرأة في العلوم الشرعية

ساهمت المرأة المسلمة بدور كبير جدا في تعلم العلم الشرعي، وتبليغه عبر العصور، وقد كانت النواة الأولى لذلك أمهات المؤمنين، وتلتهن أجيال كثيرة من النساء عبر الأزمنة والأمكنة في التحمل

1 ـ تاريخ ابن خلدون ـ 1 / 548 ـ وأنظر كتاب المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي ـ د.عبد الهادي التازي ـ الناشر: نشر الفنك ـ الدار البيضاء ـ ص235.

والتبليغ،وعددهن في كتب التراجم والطبقات لا يحصى، فمن ترجم للصحابة ذكر عددا كبيرا من النساء، ومن ترجم للمحدثات ذكر عددا كبيرا ومن ترجم للشاعرات فعل كذلك،وهكذا لا يخلو مصنف علمي من ذكرهن، والتنويه بجهودهن. وأكثر تراجم النساء في العلوم الشرعية المهتمات بالحديث النبوي[1].

روت الكثير من النساء الأحاديث النبوية المختلفة سماعا من النبي (ص) كالصحابيات بمختلف طبقاتهن: المكثرات والمقلات، زوجاته وبناته وأهل بيته ،أو عامة المسلمات. ومن الصحابيات:أمهات المؤمنين ،وخاصة عائشة.روت نساء من التابعيات عددا من الأحاديث وراوية الحديث كانت من الحرائر ومن الإماء، ومن الكبيرات والصغيرات. وقد تسمع المرأة من إمرأة، وقد تسمع من زوجها،أو أبيها ،أو أخيها، وقد يسمع منها نساء أو رجالهن كأبنائها أو أقاربها أو مواليها، وكتب الطبقات والتراجم تزخر بهذه الصفحات الناصعة في تاريخ المرأة المسلمة التي نالت حقوقها كاملة، وأحسنت استغلالها والدفاع عنها. فقضايا النساء في السنة حملها رجال كما حملتها نساء الصحابيات،والتابعيات،ومن جاءت بعدهن، عددا كبيرا من الأحاديث في مسائل متعددة « لم تكتف هؤلاء الصحابيات برواية الأحاديث المختلفة المتعلقة بالقضايا الخاصة بالمرأة، أو الموضحة لأحكام مهتمة بالنساء فقط، وإنما كانت روايتهن للأحاديث عامة، وقد روت الصحابية أخبار السيرة النبوية ،والمعجزات، وعلامات الساعة، كما روت أحاديث الوعظ، والترغيب والترهيب، وأخبار الجنة والنار، وروت أحكام العبادات، والمعاملات، وأحاديث الفضائل والمناقب وحسن السلوك ،والتعامل مع المسلمين،وبالجملة فإننا لا نكاد نجد بابا من أبواب الحديث إلا وكانت المرأة الصحابية راوية لبعض أحاديثه»[2].

وقد بذلت النساء جهودا في إيصال هذه الأحاديث إلى عدد كبير من الناس رجالا ونساء،وبذلت هذه الجهود الصحابيات والتابعيات وتابعي التابعيات وعشرات بل مئات النساء في مختلف العصور، وهذا يدل على الاهتمام الكبير الذي أولته النساء عبر العصور للسنة المطهرة، حفظا ورواية وتبليغا وفهما وتطبيقا، لأنها السنة والشرع والدين، ولأنها علم عظيم,ولأنها تحمل الكثير من الحلول لقضاياهن، وهي المرجعية الأساسية بعد القرآن الكريم، لحل مشاكلهن، وأمور تخصهن،والتماس حقوقهن، ومعرفة واجباتهن. وهذه

1 - هذا رأيي بناء على تتبعي لمصادر التاريخ الإسلامي, وكتب طبقات والتراجم والجرح والتعديل، وجدت أن أكثر من ترجم للنساء في مجال العلم ؛ هم علماء الحديث كابن حجر في الإصابة والمعجم المؤسس وتهذيب التهذيب، وابن حبان في الثقات، وابن عبد البر في الاستيعاب، وابن عساكر في تاريخ دمشق والذهبي في ميزان الاعتدال، والتاريخ الكبير وسير أعلام النبلاء والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد والمزي في تهذيب الكمال، وعلماء الأدب والشعر في مصنفات عدة. وهناك نقص كبير في مجال الترجمة للنساء الفقيهات، والمقرئات والمفسرات، والذي توسع في ذكر عدد منهن عمر رضا كحالة في كتابه أعلام النساء.

2 - المرأة في العهد النبوي ـ عصمة الدين كركر ـ دار الغرب الإسلامي ـ ط1 ـ 1993 ـ بيروت.ص 304

صورة رائعة لحفظ حقوق المرأة في السنة، وأن تحمل هذا العلم المقدس إمرأة، تسمعه، وتحفظه ثم تبلغه، ولا أحد يشكك في قدراتها العقلية ولا في أمانتها ولا في أهليتها لتحمل هذا العلم بل يسارع الكثير من الرجال إلى سماع حديثها، ومعرفة قضايا كثيرة منها، والمسائل كثيرة جدا في سؤال الصحابة والتابعين السيدة عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ في الكثير من القضايا. قال أبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ[1] : « ما أشكل علينا نحن أصحاب رسول الله حديث قط، فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علما»[2].

وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مادحة نساء الأنصار في حبهن للعلم والتفقه في الدين وسماع حديث رسول الله في قضايا تخصهن، أو قضايا الإسلام عموما: «... نعم النساء نساء الأنصار لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين»[3].

وعن صفية بنت شيبة عن عائشة قالت دخلت أسماء بنت شكل على رسول الله فقالت: يا رسول الله كيف تغتسل إحدانا إذا طهرت من الحيض، وساق الحديث، ولم يذكر فيه غسل الجنابة)[4] في هذا الحديث السائلة إمرأة، والراوية للحديث صحابية، حضرت وشهدت سؤال المرأة، وجوابه ومن سمعته من صحابة إمرأة تابعية وهكذا يكون الاهتمام، تلقيا وتبليغا.

فكتاب الحيض مثلا من صحيح مسلم حوى 136 حديثا،57 حديثا منه روته نساء من الصحابيات هن: عائشة وميمونة وأم سلمة وأم سليم وأم هانئ، ومن التابعيات عمرة بنت عبد الرحمان وزينب بنت أم سلمة ومعاذة وصفية بنت شيبية. ومرويات زينب بنت أبي سلمة في البخاري 34 حديثا، وفي مسلم 23 حديثا، وفي الترمذي 4 أحاديث، و23 حديثا في سنن النسائي، و11 حديثا في سنن أبي داود، و9 أحاديث عند ابن ماجة، و24 حديثا في المسند، و5 أحاديث في الموطأ، وفي سنن الدارمي حديثين والمجموع 135 حديثا، وتكمن أهمية هذه المروريات في كونها عن أمها أم سلمة، وأمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ ومن أنواع المساهمة النسوية في العلوم الشرعية ما يلي:

1 - هو عبد الله بن قيس أبو موسى الأشعري صحابي مشهور معروف بحسن صوته في قراءة القرآن كان أحد الحكمين في واقعة صفين روى أحاديث وروى عنه بنوه توفي سنة 44هـ (أنظر ترجمته في الإصابة 4/211)

2 - أخرجه الترمذي ـ كتاب المناقب ـ باب فضل عائشة ـ رقم 2883 وقال حسن صحيح. ولن يوفى حق عائشة رضي الله عنها ـ في سطور قليلة، فالحديث عنها يحتاج إلى مجلدات كمفسرة وفقيهة ومحدثة ومستدركة على كبار الصحابة...

3 - رواه مسلم ـ كتاب الحيض ـ باب استحباب استعمال المغسلة رقم 702

4 - أخرجه مسلم ـ كتاب الحيض ـ باب استحباب استعمال المغسلة ، رقم 704 وأبو داود ـ كتاب الطهارة ـ باب الاغتسال من الحيض، رقم 314

الفرع الأول: السؤال الذي تلاه التشريع أو تشريع أحكام بسبب سؤالها

كثرت أسئلة النساء للنبي في شؤونهن، وأمور دينهن، وهذه الإجابات أصبحت فيما بعد تشريعات للأمة، ولولا سؤال المرأة، لما كان الحكم والتشريع الأمثلة على ذلك.

هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: جاءت فاطمة بنت أبي حبيش إلى النبي فقالت يا رسول الله: إني إمرأة أستحاض، فلا أطهر أفأدع الصلاة ؟ فقال: لا إنما ذلك عرق وليس بالحيضة، فإذا أقبلت الحيضة فدعي الصلاة، وإذا أدبرت فاغسلي عنك الدم وصلي)[1] فسؤال المرأة الصحابية عن أمور دينها، وأمور تخصها جعلت الرسول الكريم يقرر تشريعا إما بانتظار الوحي ونزول القرآن ،وإما بالحديث، وهذا إسهام منها في معرفة أحكام الشرع للنساء بعدها،وبقيت هذه الأحكام ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، وأيما إمرأة حدث لها مثل هذا الأمر فقد كفتها فاطمة بنت أبي حبيش عناء البحث والسؤال بالرجوع إلى الحديث ومعرفة فقهه فقط. والأمثلة كثيرة.

الفرع الثاني: أحكام وأدلة شرعية لم تثبت إلا من روايتهن

فهن العمدة في بابها، ولم تثبت من طريق الرجال، وكان هذا في زمن الصحابة ،فقد كانت الصحابيات كثيرات السماع والحفظ. والاهتمام بشؤون دينهن ،ولم يقفن عند هذه الدرجة بل تعدت إلى التبليغ بكل أمانة وثقة ومسؤولية، وخدمة الإنسانية، ومن هذه الأحاديث التي لا يعرف أنه قد رواها، إلا النساء، حديث الفريعة في سكنى المتوفى عنها زوجها، وقد تفردت التابعية الجليلة زينب بنت كعب بن عجرة برواية هذا الحديث عن الفريعة، وتلقاه الخليفة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ بالقبول، وقضى به بمحضر من المهاجرين والأنصار، وأخذ به العلماء، واستعمله أيضًا أكثر فقهاء الأمصار وتلقوه بالقبول، وقضوا به.. فهذا محمد بن سيرين يقضي في إمرأة توفي عنها زوجها وهي مريضة، نقلها أهلها، أن ترد إلى بيتها في نمط.

وكان حجة ردها إلى بيت زوجها حديث الفريعة.. فعن زينب بنت كعب بن عجرة أن الفريعة بنت مالك بن سنان وهي أخت أبي سعيد الخدري:أخبرتها أنها ((جاءت رسول الله تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة، وأن زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا،حتى إذا كان بطرف القدوم لحقهم فقتلوه.قالت:فسألت رسول الله أن أرجع إلى أهلي، فإن زوجي لم يترك لي مسكنا يملكه ولا نفقة قالت: فقال رسول الله نعم.

1 - صحيح مسلم ـ كتاب الحيض ـ باب المستحاضة ـ 1 /262 ـ رقم 333

قالت: فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة، (أو في المسجد) ناداني رسول الله (أو أمر بي فنوديت له) فقال كيف قلت؟ قالت: فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي.

قال: « اسكني في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله ، قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرا، قالت:فلما كان عثمان أرسل إلي فسألني عن ذلك، فأخبرته فأتبعه وقضى به»[1].

وممن حظي بهذا الشرف أيضًا، فكانت قصتها حديثًا يروى وسنة متبعة، وحكمًا يقضى به، فاطمة بنت قيس فيما روته عن النبي في نفقة وسكنى المبتوتة، فعن فاطمة بنت قيس أنه طلقها زوجها في عهد النبي وكان أنفق عليها نفقة دون فلما رأت ذلك قالت والله لأعلمن رسول الله إن كان لي نفقة أخذت الذي يصلحني وإن لم تكن لي نفقة لم آخذ منه شيئا قالت فذكرت ذلك لرسول الله فقال: لا نفقة لك ولا سكنى)[2] وقد أخذ كبار التابعين هذا الحديث من فم فاطمة وتناقلوه عنها، وارتبط باسمها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما عقد العلماء والفقهاء لهذا الحديث، نقاشات كثيرة في الحكم المستنبط منه، وذهبوا في ذلك مذاهب، ومرجعهم في ذلك قصة فاطمة بنت قيس. فمثلا في صحيح مسلم، تكررت قضية فاطمة بنت قيس ـ رضي الله عنها ـ في مسائل الطلاق والسكنى والعدة أكثر من عشرين مرة، كما تكررت في سنن النسائي في أكثر من عشرة مواضع. لكثرة من سمع ومن روى، وتبقى هي صاحبة السؤال والرواية، والحكم الذي تضمن سؤالها. وسنن كثيرة تعلقت بأحكام النساء، فاهتمت برواياتها فاشتهرت عن طريقها، فعرفت أحكام وآثار كثيرة لولا النساء ما وصلت إلينا، وهكذا ظلت الصحابية الجليلة مرجعًا في هذا الباب لكبار الصحابة والتابعين، يسألونها عن حكم رسول الله (ص)، كما ظل حديثها عمدة المحدثين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

الفرع الثالث: أحاديث وأحكام فقهية لم تبلغها إلا النساء

وقد تبلغ الراوية الذروة في الوعي والحفظ والأداء ،عندما تنفرد وحدها، برواية حديث الجساسة الطويل، وصفة خروج الدجال[3]، هو من رواية الصحابية الجليلة فاطمة بنت قيس رضي الله عنها «...فعامر

1 ـ قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح والعمل على هذا الحديث عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لم يروا للمعتدة أن تنتقل من بيت زوجها حتى تنقضي عدتها وهو قول سفيان الثوري والشافعي وأحمد وإسحق وقال بعض أهل العلم من أصحاب النبي(ص) وغيرهم للمرأة أن تعتد حيث شاءت، وإن لم تعتد في بيت زوجها. قال أبو عيسى والقول الأول أصح.قال الشيخ الألباني: صحيح ـ سنن الترمذي ـ 3 / 508 ـ سنن النسائي ـ 6 / 199. قال الشيخ الألباني: صحيح مسند أحمد بن حنبل ـ 6 / 370 ـ تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن ـ سنن الدارمي ـ 2 / 221 ـ قال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

2 ـ صحيح مسلم ـ كتاب الطلاق ـ باب المطلقة ثلاثا لا نفقة لها ـ 2 / 1114 ـ رقم 1480 .وقد تكرر الحديث أكثر من 20 مرة. وفي سنن النسائي أكثر من عشر مرات. ـ أخرجه البخاري ـ كتاب الطلاق ـ باب قصة فاطمة بنت قيس ـ 5/2038 ـ ومسلم ـ كتاب الطلاق ـ باب المطلقة ثلاثا ـ 2/1112رقم 1480

3 ـ أنظر صحيح مسلم ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ـ باب قصة الجساسة ـ 4/ 2261 ـ رقم2942

بن شراحيل الشعبي شعب همدان: أنه سأل فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس، وكانت من المهاجرات الأوائل، فقال: حدثيني حديثا سمعتيه من رسول الله لا تسنديه إلى أحد غيره، فقالت: لئن شئت لأفعلن، فقال لها: أجل حدثيني فقالت...» حديث الجساسة الطويل.

قال فيه ابن عبد البر: «...وهذه كلها آثار ثابتة صحاح من جهة الإسناد والنقل»[1].

والنبي قد حدث به في المسجد حيث الحشود من النساء والرجال، بعد أن نودي للصلاة جامعة، فرغم طول الحديث ودقة ما فيه من صور ومشاهد وغرابتها، إلا أنه لم يصلنا إلا من طريق إمرأة هي فاطمة بنت قيس، وهذا يدل على حرص المرأة على التعلم والإرادة القوية في التلقي، والمقدرة العجيبة لحفظ الراوية، وذكائها، وعلمها، وإجادتها لما سمعته. وهناك أحاديث أخرى كثيرة، لا جزم بتفرد النساء بروايتها دون الرجال، لأنها من القضايا المشتركة بين المسلمين، إلا أن رواية النساء فيها أصل وعمدة في بابها. فحديث أم عطية ـ رضي الله عنها ـ في غسل الميت أصل في الباب، وأخذه عنها جماعة من الصحابة والتابعين،سبب حسن روايتها وفهمها للأحكام، وكانت قد غسلت بنات النبي زينب وأم كلثوم[2]، والنبي يوجهها، ويرشدها خطوة خطوة، حتى استوعبت تماما الفعل والقول النبوي وبرعت فيه، فكانت تغسل الميتات لاختصاصها في هذا المجال ودرايتها فيه.

وفي البصرة اشتهرت أم عطية بفقهها وفهمها للحديث النبوي وأحكامه، فكانت مقصد الرجال والنساء في السؤال عن كيفية تغسيل الميت.حتى قال ابن عبد البر: « ولست أعلم في غسل الميت حديثا جعله العلماء أصلا في ذلك، إلا حديث أم عطية الأنصارية، هذا فعليه عدلوا في غسل الموتى...»[3].

الفرع الرابع: استدراكات النساء على الرجال في العلم

تمثل هذا المنحى القوي في العلم، والنبوغ والتفوق، أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها التي استدركت على كثير من الصحابة في أحاديث لم تثبت إلا من طريقها، فقد استدركت على أبي بكر وعمر وعلي بن

1 - الاستذكار ـ ابن عبد البر ـ 8 / 333

2 - الحديث أخرجه البخاري ـ كتاب الوضوء ـ باب التيامن في الوضوء والغسل ـ 1/73 ـ رقم165 ـ ومسلم ـ كتاب الجنائز ـ باب غسل الميت ـ 2/646 ـ رقم 939. (... قال أبو عمر ـ ابن عبد البر ـ كانت حفصة بنت سيرين قد روت هذا الخبر عن أم عطية بأكمل ألفاظ فكان محمد بن سيرين يروى عن أخته حفصة عن أم عطية من ذلك ما لم يحفظه عن أم عطية فمما كان يرويه عن حفصة عن أم عطية قولها ومشطناها ثلاثة قرون لم يسمع ابن سيرين هذه اللفظة من أم عطية فكان يرويها عن أخته حفصة عن أم عطية حدث بذلك عن أيوب عن ابن سيرين عن حفصة عن أم عطية قوم منهم ابن عيينة ويزيد بن زريع وقد روى أيوب هذا الحديث عن حفصة بنت سيرين عن أم عطية وعن محمد بن سيرين عن أم عطية...) التمهيد ـ 1 / 372

3 - الاستذكار ـ ابن عبد البر ـ 3 / 6.

أبي طالب وعبد الله بن عمروعبد الله بن عمرو وأبي هريرة وأبى سعيد الخدري ومروان بن الحكم وابن مسعود وأبي موسى الأشعري وزيد ين أرقم والبراء بن عازب وعبد الله بن الزبير وعروة بن الزبير وجابر وعلى أبي طلحة وأبي الدرداء وعبد الرحمن بن عوف وأخيها عبد الرحمن بن أبي بكر وفاطمة بنت قيس وأزواج النبي[1].

وكانت هذه الأحاديث التي ناقشت فيها كبار الصحابة والصحابيات، منها ما يتعلق بالسماع والثبوت والرواية، ومنها ما يتعلق بالمتن والدراية والمضمون ،وكانت هذه الأحاديث في مجالات عدة ، منها ما هو خاص بأحكام فقهية، أو عقائد أو قصص وغيرها.

كان الناس يرون علم عائشة ـ رضي الله عنها (وهي خريجة مدرسة النبوة) قد بلغ ذروة الإحاطة والنضج في كل ما اتصل بالدين من قرآن وحديث وتفسير وفقه، وكانت في المدينة مع الفقهاء الكبار كعبد الله بن عمر وأبي هريرة وابن عباس في مقام الأستاذ من تلاميذه. كتب عنها الذهبي في كتابه «سير النبلاء» فقال: « لو جمع علم الناس كلهم وأمهات المؤمنين لكانت عائشة أوسعهم علما...».

الفرع الخامس:المرأة يروى عنها صحيح البخاري بالسند العالي ويعتمد سندها

إنها المحدثة كريمة بنت أحمد المروزية ،التي قصدها العلماء، من المشرق والمغرب لسماع صحيح البخاري، وأخذ الإجازة عنها بسبب السند العالي والثقة، وقد كانت تكتب وتقابل النسخ، وتروي من كتابتها. في ترجمة ابن كثير للخطيب البغدادي يؤكد أنه سمع صحيح البخاري من إمرأة التي هي كريمة المروزية «...أحد مشاهير الحفاظ وصاحب تاريخ بغداد وغيره من المصنفات العديدة المفيدة نحو من ستين مصنفا... ولد سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة للهجرة، وقيل سنة ثنتين وتسعين، وأول سماعه سنة ثلاث وأربعمائة، ونشأ ببغداد..وقرأ صحيح البخاري على كريمة بنت أحمد في خمسة أيام ورجع إلى بغداد »[2].

وقال الذهبي: «كريمة بنت أحمد بن محمد بن حاتم المروزية، أم الكرام المجاورة بمكة كانت كاتبة فاضلة عالمة...وكانت تضبط كتابتها، وإذا حدثت قابلت بنسختها». ولها فهم ومعرفة حدثت بالصحيح «وأقامت بمكة دهرا وحمل عنها خلق من المغاربة والمجاورين وعلا إسنادها»[3]، وقد كانت نسختها هي المعتمدة عند ابن حجر ـ رحمه الله ـ في شرحه فتح الباري.

1 - أنظر كتاب الإجابة لما استدركته عائشة عن الصحابة ـ الزركشي ـ تحقيق سعيد الأفغاني ـ 55 ـ البداية والنهاية ـ 12 /101.
2 - البداية والنهاية - 12 /101.
3 - تاريخ الإسلام ـ الذهبي 1 /3255.العبر ـ الذهبي ـ 1 / 213

المطلب الثاني: إسهام المرأة في العلوم الأخرى

أسهمت المرأة المسلمة في التطور العلمي والثقافي لمجتمعها وكان لها حضور وإبداع في مجالات علمية كثيرة ، منها الشعر والأدب، والطب والصيدلة والهندسة والرياضيات، وغيرها.وقد حفظ التاريخ الكثير من النساء الشاعرات في مختلف البلاد الإسلامية[1]، وتراجمهن تملأ كتب الطبقات والتراجم والتاريخ، وساهمت المرأة بشعرها في قضايا أمتها، ولم يقتصر شعرها على الجوانب العاطفية التي تلصق بالمرأة دائما، بل كان لها شعر يحمل هدفا ورسالة، ومنهن الشاعرة الصحابية الخنساء التي أجادت فن الرثاء في الجاهلية وأجادت شعرا آخر في إسلامها يحمل رسالتها.

«...كان رسول الله يستنشدها ويعجبه شعرها...وأجمع أهل العلم والشعر أنه لم تكن إمرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها...»[2] وقد تلت الخنساء نساء كثيرات ساهمن في إثراء الساحة الأدبية والمشهد الثقافي بشعرهن حرائر وإماء، في العصر الأموي والعباسي، والمماليك، بالمشرق والمغرب والأندلس. أما في مجال الطب والصيدلة، فقد عرف عن المرأة اعتناؤها بهذا العلم دراسة وتطبيقا منذ الجاهلية.وفي صدر الإسلام ساهمت المرأة بخبرتها في الطب والصيدلة في الغزوات والحروب التي خاضها المسلمون مع النبي (ص) وبعد وفاته. رفيدة الأنصارية التي هي من جيل الصحابيات، أحسن مثال على ذلك. «...فسعد بن معاذ لما أصابه بالخندق فقال رسول الله اجعلوه في خيمة رفيدة التي في المسجد حتى أعوده من قريب، وكانت إمرأة تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين، وقال البخاري في الأدب المفرد: لما أصيب أكحل سعد يوم الخندق، فقيل حولوه عند إمرأة، يقال لها رفيدة وكانت تداوي الجرحى...»[3].

ولم تكن رفيدة المرأة الوحيدة التي تعلمت علما فخدمت به الإنسانية،وأسست أول مستشفى ميداني في تاريخ الإنسانية، بل كانت هذه المعرفة بالقضايا التطبيب والمداواة منتشرة في المجتمع الإسلامي الأول إضافة إلى النية الخالصة في بذل هذه المعرفة في سبيل الله. وقد تصبح المواقف أكثر روعة وإنسانية،عندما تبذل المرأة نفسها وعلمها في سبيل نصرة قضيتها، وقد فعلتها نساء بني غفار «...أن إمرأة من بني غفار قالت: أتيتُ رسول الله في نسوة من بني غفار فقلنا: يا رسول الله، قد أردنا أن نخرج معك إلى خيبر، فنداوي الجرحى، ونعين المسلمين بما استطعنا. فقال: « على بركة الله. قالت: فخرجنا معه...»[4].

1 ـ لقد ترجم المقري في كتابه نفح الطيب لعدد كبير من الشاعرات الأندلسيات ـ وكذلك كتاب فيض العباب» لابن الحاج النميري ـ وأعلام النساء لعمر رضا كحالة ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ والأعلام للزركلي وغيرها

2 ـ أنظر ترجمتها في الاستيعاب 1/590 ـ الإصابة ـ 7/614 ـ أسد الغابة ـ ابن الأثير ـ 1 / 1342.

3 ـ أنظر التفصيل في الإصابة في تمييز الصحابة ـ 7 / 646. الطبقات الكبرى ـ ابن سعد ـ 3/427

4 ـ أخرجه أحمد في مسند الأنصار ـ حديث إمرأة من بني غفار ـ 6/ 380 ـ تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف لجهالة أمية بنت

ولم تقتصر المسيرة النسائية في الخدمة الإنسانية، بالعلم والمعرفة عند جيل واحد ،الذي هو الجيل الأول، بل كانت نساء هذا الجيل ، قدوة حسنة لمن أتت بعدهن. وقد ذكر علماء التاريخ عددا من النساء اللواتي اشتهرن بالطب والصيدلة ،واحترفن هذه المهنة، في المشرق والمغرب، وخدمن بها المجتمع.

وينبه الدكتور سليم الحسني[1]، إلى أن النساء في التاريخ الإسلامي اشتهرن بالرياضيات والكيمياء والحساب والاختراع يقول: إن ظهور نساء في مجالات تعتبر مقدسة في الدين الإسلامي يعني أنّه كان هناك أيضا عالمات في علوم طبيعية، مثل الرياضيات والفلك والكيمياء، وأنّه لو تم توسيعنا البحوث عنهن في بطون التاريخ لوجدنا المزيد، بالأخص في مجالات الطب والصيدلة، لأنّهن شاركن في الحملات والمعارك والجيوش. ومن بين النساء اللواتي، تخصصن في علم الرياضيات، سُتيتة البغدادية وهي عالمة كبيرة عاشت في العصر العباسي يوضح الحسني أنّ الرياضيات في ذلك الوقت كان لها خدمة اجتماعية، ويعطي مثالا: اعتاد الناس حين بناء منازلهم على إعطاء ما يشبه المقاولة للعمال، فإذا لسبب ما، تم بناء نصف المنزل فقط مثلا، يتوجهون بشكواهم للقاضي من أجل أخذ حقوقهم. لكن كيف سيحسب القاضي ذلك. ؟ يجيب الحسني:يذهبون إلى خبراء حساب، مثل سُتيتية التي تستخدم عمليات رياضية وجبر معقدة لقياس حجم البناء، سطح الأرض، كمية الحجر، وساعات العمل الخ، أي تقوم بإجراء معادلات رياضية، وتطلع بنتيجة تعرضها على القاضي، بذا تكون ما نسميه في عصرنا «شاهد أو خبير علمي».

المطلب الثالث : المرأة والتصنيف

لما كان للمرأة المسلمة دور كبير في الحركة العلمية والثقافية، عبر تاريخها الطويل، فالتساؤل الذي يطرح، هل صنفت المرأة كتبا؟ وهل اشتهرت كتابات النساء وانتشرت؟.

لقد سبقت الإشارة إلى أن النساء كنّ يعرفن الكتابة والقراءة منذ الجاهلية إلى عصر النبوة إلى العصور الزاهرة بالعلم والمعرفة. فقد تعلمت حفصة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ الكتابة بإقرار منه وعليها تعلمت نساء أخريات من الصحابيات والتابعيات، ونساء كثيرات من السلف الصالح كتبن الحديث، والفقه والعلوم الكثيرة وكتبن إجازات للعلماء، ولا تذكر كتب التاريخ: أول مصنف ظهر للمرأة المسلمة، ولكن الذي ذكرته

أبي الصلت ـ وأبو داود في سننه كتاب الطهارة ـ باب المستحاضة يغشاها زوجها ـ 1/ 136 ـ رقم 313.وقال الألباني ضعيف.

1 - رئيسُ مؤسسة العلوم والتكنولوجيا والحضارة، المشرف على إعداد كتاب « اكتشف التراث الإسلامي في عالمنا ـ ألف اختراع واختراع»، الدكتور سليم حسيني يقول:إنّ مؤسسة العلوم والتكنولوجيا والحضارة اكتشفت حديثا مخطوطات تبين نساء يلقين محاضرات على رجال من على منبر.

أن النساء صنفن في علوم شتى، فهذه المحدثة الجليلة كريمة المروزية المتوفاة سنة 462هـ تكتب صحيح البخاري وتمليه من خطها ويعتمد ابن حجر نسختها. «...وكانت تضبط كتابها وتقابل نسخها»[1].

وكانت نساء كثيرات يتخذن نسخ الكتب حرفة لهنّ، وتختص بهذه الحرفة نساء عالمات جليلات، بل إن منهن من أشاد بهن علماء الأمة... كشهادة ابن حبان القرطبي لـ «عائشة بنت أحمد القرطبية» التي قال عنها «إنه لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يعادلها علمًا، وفهمًا وأدبًا وعزًا، كانت تمدح ملوك الأندلس، حسنة الخط، تكتب المصاحف والدفاتر وتجمع الكتب، وتعنى بالعلم، ولها خزانة علم كبيرة، توفيت سنة 400هـ»[2].

وقال علماء المغرب في وصف عائشة: «كانت أديبة أريبة، فصيحة، كان لها خط حسن، كتبت يتيمة الدهر بخطها، في ثمانية عشر جزءًا، وهي محفوظة ببجاية[3] بالمغرب».

ومن اللواتي كتبن الموطأ خديجة بنت جعفر بن نصير بن التمار التميمي. زوج عبد الله بن أسد الفقيه حدثت عن زوجها عبد الله بموطأ القعنبي قراءة عليه بلفظنا في أصله، وقيدت فيه سماعها بخطها في سنة 394هـ. سمعت أبا الحسن بن مغيث ـ رحمه الله ـ يذكر ذلك وذكر لي أن الكتاب عنده،ثم رأيته بعد ذلك على حسب ما ذكره ـ رحمه الله ـ ورأيت من تحبيسها كتبا كثيرة على ابنتها ابنة أبي محمد بن أسد الفقيه[4].
هذه بعض الأمثلة ـ لا الحصر ـ على اشتغال النساء بالتصنيف، ونسخ كتب العلماء سواء من أجل الحفظ والتعلم,أو من أجل حرفة النسخ.وهناك نساء صنفن دواوين وكتبن شعرا وهن كثيرات، أو كتبن في علوم الشريعة، لكن المصادر شحيحة جدا في ذكرهن.

ومن الذين صرحت المصادر بأنهن صنفن كتبا: «عائشة بنت يوسف بن أحمد الباعونية» وهي من قرية باعون بشرق الأردن، وهي شاعرة وأديبة وفقيهة أجيزت في الإفتاء والتدريس وعاشت معظم حياتها في دمشق، ورحلت إلى مصر حيث قضت بها بضع سنين توفيت سنة 922 هـ.
وقد ذكر صاحب كتاب كشف الظنون[5] بعض مصنفاتها منها:

1 - العبر في خبر من عبر ـ الذهبي - 1/231
2 - الصلة ـ ابن بشكوال 1/225
3 - بجاية الآن، مدينة جزائرية ساحلية تقع شرق الجزائر العاصمة وتبعد عنها بحوالي 300كلم، وقد كانت بها حضارة كبيرة وكانت تسمى عاصمة الحماديين، وقد نزح إليها الإسبان بعد سقوط غرناطة كان بها عدد كبير من العالمات والحافظات للقرآن الكريم وموطأ الامام مالك وصحيح البخاري
4 - الصلة - 1 / 225 - 226
5 - أنظر كشف الظنون - 1 / 81 - 732 - 1081 - 1232 - 1813 - 1828 - هداية العارفين - 1 / 227 - معجم المطبوعات - 1 / 519.

1 ـ الإشارات الخفية في المنازل العلية ـ اختصرتها: من: «منازل السائرين إلى الحق المبين» لعبد الله بن محمد بن إسماعيل الأنصاري الهروي الحنبلي الصوفي المتوفى 481 هـ

2 ـ در الغائص في بحر المعجزات والخصائص ـ قصيدة رائية ـ أرجوزة ـ لخصتها:عائشة بنت يوسف الدمشقية ـ من: «القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع».

3 ـ فتح الخفي من فتح التلفي ـ مشتمل على: كلمات لدنية

4 ـ الفتح المبين في مدح الأمين ـ قصيدة ميمية في البديع ـ ولها: في حسن مطلع أقمار بذي سلم... أصبحت في زمرة العشاق كالعلم.

5 ـ الملاقح الشريفة من الآثار اللطيفة ـ وهي مشتملة على: إشارات صوفية.

6 ـ صلات السلام في فضل الصلاة والسلام.

7 ـ القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع صلى الله عليه وسلم.

فعائشة الباعونية من عالمات القرن العاشر الميلادي,وقد كتبت وصنفت واختصرت ،وهذا يدل على أن النساء في القرون السابقة الزاهرة،كن أكثر علما وأكثر تصنيفا،ولعل عدم الشهرة وعدم الترجمة لهن، أو ضياع كتبهن هي أحد الأسباب.

وهناك بعض المخطوطات والرقع الخطية مجهولة الناسخ، ولما تم فحصها تبين أنّ بعضها يعود لخطاطات لم يذكرن أسماءهن الصريحة، واكتفين بذكر اسم العائلة، أو الزوج أو الكنية[1].

منهن « أم الخير بنت أحمد عيسى»، و« زوجة السردار عبد القدوس»، خان معتمد الدولة الأفغانية، التي كتبت سورة الفاتحة بخط التعليق وزينتها بالزخارف الملونة، وكذلك «زين النساء أور» التي كانت توقع بأسماء مستعارة، ولعل ذلك يرجع إلى الحياء الشديد والعفة التي ترسخت لدى المرأة المسلمة، عبر عصور التاريخ الإسلامي.

المبحث الخامس: أوقاف نسائية لخدمة العلم وأهله

صورة أخرى من صور الإسهام العلمي للمرأة المسلمة عبر التاريخ، العمل الخيري في ميدان العلم، فقد تسابقت نساء كثيرات في مختلف العصور، ومن مختلف الطبقات، أميرات ،ملكات، بنات العلماء

1 - من موقع islam - online.net بحث نساء خطاطات وعالمات ـ للباحث

بنات التجار، إلى فعل الخير والوقف على العلم.والوقف شرعا هو: «هو حبس مال يمكن الانتفاع به، مع بقاء عينه، بقطع التصرف في رقبته من الواقف على مصرف مباح، وموجود بصرف ربحه على جهة بر وخير تقربا إلى الله تعالى»[1].

وقد وقفت المرأة على العلم أوقافا مختلفة تمثلت في المساجد والمدارس والمصاحف والكتب والأموال وغيرها.لأنها تمتلك أهلية وذمة مالية مستقلة،فلها مطلق الحرية في إنفاق مالها فيما ترغب من الزكاة والصدقات وسبل الخيرات.. تقول المستشرقة أنا ماري شيمل: «... ولكن عزل النساء في الإسلام لم يحدث، إلا كنتيجة لتطورات سياسية واجتماعية...»

ولكن القرآن لم يأمر مطلقا بعزل المرأة ،وإبعادها عن جميع أنشطة المجتمع...إنني أقول دائما للغربيين الذين يشوهون صورة الإسلام، أن الإسلام قد منح المرأة حق الاحتفاظ بما كانت تملكه قبل زواجها وكذلك بما تكسبه أثناء زواجها وهذا يضمن أن لها الحق في ممارسة أي مهنة أو تجارة والمرأة الأوربية لم تتوصل إلى حق الاحتفاظ بما تملكه بعد زواجها، إلا منذ وقت قريب...»[2].

المطلب الأول: أوقاف نسائية متمثلة في بناء المساجد جامع القرويين[3]

وهو المسجد التاريخي العظيم، الذي أنشأته السيدة فاطمة بنت الشيخ الفقيه أبي عبد اللَّه محمد بن عبد اللَّه الفهري القيرواني، المعروفة باسم فاطمة أم البنين. وكانت قد ورثت عن والدها ثروة مباركة فبنت بها مسجداً جامعاً واختارت له الأرض المناسبة بنفسها ودفعت ثمنها (ستين أوقية من الذهب) مع تكاليف البناء. وقد تم الشروع في بناء جامع القرويين في رمضان 245 هـ، وقد نذرت السيدة فاطمة الفهرية أن تصوم للَّه طيلة مدة بنائه.وقد درّس، ودرس به عدد كبير من العلماء.وخصوصية جامع القرويين لا تكمن فحسب في هذه السيدة الصالحة التي بنته من حُرِّ مالها، ولا في أقدميته واستمرار وجوده إلى الآن، بل في مكانته التاريخية وأدواره الدينية والعلمية والسياسية والحضارية.

1 - وهو تعريف الصاحبين أبو يوسف ومحمد، أنظر اللباب شرح الكتاب ـ الشيخ عبد الغني الغنيمي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة ومطبعة محمد صبيح وأولاده بمصر، ط4 / 1381 هـ ـ 1961 م، (2 / 130)..

2 - أنا ماري شيمل نموذج مشرق للاستشراق ـ ترجمة وتعليق ثابت عيد ـ تقديم الدكتور محمد عمارة ـ دار الرشاد ـ القاهرة ـ ط1 ـ 1419هـ ـ 1998م ص57 - 58

3 - القرويين جامع وجامعة ـ عبد الهادي التازي

جامع الأندلس بفاس[1] :

بنته أختُ أم بنين فاطمة الفهرية مريم أم الحسن بنت سليمان، ومن أشهر المحدّثات في الأندلس، ذكر أنها روت عن محدث الأندلس، بقي بن مخلد سماعاً منه، وقراءة عليه، وقد حجت والتقت بعلماء الحجاز، وسمعت منهم الحديث والفقه، وعادت إلى الأندلس ثم حجت مرة ثانية، وتوفيت في مكة المكرمة.

ويؤكد الأستاذ التازي أن جامع القرويين، ومعه جامع الأندلس كان لهما فضل كبير على تثقيف السيدات المتطلعات للعلم والمعرفة.

المسجد الجامع الفخم: بالقاهرة الذي بنته إمرأة تدعى خازندراة.

المطلب الثاني: وقف النساء مدارس

وهي كثيرة جدا ،مشرقا ومغربا، منها:

المدرسة الخاتونية البرانية[2] : بدمشق ، التي بنتها زمرد خاتون صفوة الملوك بنت الأمير جاولي الدمشقية، أخت الملك الدقاق لأمه وزوجة تاج الملوك يوري المتوفاة:557هـ / 1162م، روت الحديث واستنسخت الكتب وحفظت القرآن. وقد درس بهذه المدرسة كبار العلماء.

المدرسة العذراوية[3] : أنشأتها الست العذراء بنت أخ صلاح الدين الأيوبي (ت: 580هـ). هي على مذهب الشافعية والحنفية بدمشق. ودرس بها كذلك كبار العلماء ،كابن عساكر، وابن خلكان، والسبكي ،... وخرّجت عشرات طلبة العلم والفقهاء، والمحدثين.

المدرسة الأتابكية ودار الحديث الأشرفية[4] : أنشأتها خاتون بنت نور الدين أرسلان بن أتابك المتوفاة: 640هـ .ودرس بها علماء كبار في ذلك الوقت كالذهبي، والسبكي، وابن الصلاح وغيرهم.

المدرسة العادلية الصغرى[5] : أنشأتها زهرة خاتون بنت السلطان العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب (تـ: 609هـ)، ثم ملكتها لابنة عم أبيها الخاتون بابا خاتون ابنة شيريكوه، الدار المذكورة، وقرية من قرى

1 - عمر رضا كحالة: أعلام النساء ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت. ـ 4/365 ـ مريم الفهرية الكتاب: المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي ـ الكاتب: د.عبد الهادي التازي ـ ص213

2 - أنظر التفصيل في كتاب الدارس في تاريخ المدارس ـ النعيمي ـ جـ1/ 129

3 - المصدر نفسه 1/373 ـ تاريخ الإسلام ـ الذهبي ـ 1/4337

4 - المصدر نفسه ـ 1/ 315 ـ

5 - المصدر نفسه ـ جـ1ص369

لبنان، والحصة من قرية بحلب، وأماكن أخرى، والحمام المعروف بابن مرسك، فوقفت بابا خاتون ذلك جميعه على زهرة خاتون الملكة ،ومن بعدها تكون مدفنا،ومدرسة، ومواضع للسكنى، وشرطت للمدرسة العادلية مدرسا، ومعيدا، وإماما، ومؤذنا، وبوابا، وقيما، وعشرين فقيها، ووقفت الجهات المذكورة منها ما هو على مصالح المدرسة ،ومصاريفها...

المدرسة الشامية الجوانية والمدرسة الشامية البرانية: أنشأتهما ست الشام أخت السلطان الملك العادل قال فيها الذهبي: «واقفة المدرستين كانت سيدة الملكات في عصرها، كثيرة البر والصدقات...»[1] وقال النعيمي: «والمدرسة الشامية البرانية أكبر المدارس وأعظمها وأكثرها فقهاء وأكثرها أوقافا».

هذه أمثلة قليلة عن المدارس التي وقفتها النساء في بلاد الشام، وقد أشار النعيمي في كتابه إلى عدد كبير منها، وكذلك المؤرخون كابن كثير والذهبي وغيرهم.

جامعة القرويين:إن أول جامعة في تاريخ البشرية، أنشاتها إمرأة تدعى فاطمة الفهرية، أصلها من القيروان، فكان جامعا، وصار بعد فترة وجيزة من بنائه، جامعة إسلامية هي الأولى من نوعها في العالم الإسلامي، بل في العالم كله. «وظل جامع القرويين الذي شيدته إمرأة، يضم من بين المائة والأربعين كرسيا علميا التي كان يتوفر عليها كرسيان اثنان يوجدان في أماكن خاصة؛ تساعد من حيث موقعهما على تمكين المرأة من الاستماع مباشرة إلى كبار المشايخ، مثل ما يسمعه الرجال، وهكذا كان في استطاعة المرأة أن تتابع ما يعطى من أعلى هذين الكرسيين، لمختلف الحاضرين من الطلبة وغيرهم، والملاحظ أن الكرسيين المذكورين ظلا معا إلى اليوم يؤديان واجبهما العلمي والتثقيفي»[2].

كليات الأزهر الشريف: التي بنتها إمرأة محسنة تدعى، خازندارة، يقول محمد الغزالي رحمه الله ـ «أجيال كبيرة من علماء الأزهر تخرجوا في كلية أصول الدين ،مدينون أدبيا وماديا لإمرأة محسنة وقفت مالها لله، وأنشأت مؤسسات يتفجر الخير منها, منذ عشرات السنين... وأنا واحد من الذين نالهم ذلك العطاء الدافق، وتلقيت الدروس من أفواه جملة من أكابر علماء الأزهر، وقادة الفكر الإسلامي،أتيحت لهم فرصة التعليم في قاعات المبنى الذي أنشأته «خازندارة» ملحقا بمسجدها الجامع الفخم... وأثناء تلقينا الدروس بمبنى الخازندراة، بدأنا نسمع ضجيج بناء عمارة كبيرة، فتساءلنا: ما هذا ؟ قالوا: مستشفى خازندراة... الحق أني دعوت من أعماق قلبي للمرأة الصالحة تبني معهدا ومسجدا وملجأ ومستشفى...»[3].

1 ـ تاريخ الإسلام ـ الذهبي ـ 1 / 4481 ـ الدارس في تاريخ المدارس 1/303 ـ 1/277
2 ـ المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي ـ الكاتب: د.عبد الهادي التازي ـ ص213
3 ـ قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة ـ الشيخ محمد الغزالي ـ دار الانتفاضة ـ دار الشروق ط1 ـ 1992 ـ الجزائر ـ ص 85

المطلب الثالث: وقف الكتب والمصاحف ووسائل التعليم

بحفظ التاريخ وكتب التراجم والطبقات أن نساء كثيرات من الشرق والغرب الإسلامي، وقفن كتبا ومصاحف ومكتبات على طلبة العلم، بالمساجد وبالمدارس. ومن هذه الكتب ما هو مكتوب بخطهن، ومنه ما هو مشترى بأموالهن.

ومن أمثلة الأوقاف النسائية في هذا المجال،أوقاف السيدة مسعودة الوزكيتية، والدة الخليفة السعدي أحمد المنصور الذهبي، وهي التي بنت مسجد باب دكالة بمراكش، وجهزته بخزانة للكتب، كما خصصت أحباساً للكراسي العلمية، وذلك سنة 995 هـ[1].

فقد وقفت زوجة الخليفة المستعصم، أم ولده أبى نصر، المدرسة البشيرية في بغداد[2]، وجعلتها للمذاهب الأربعة، ووقفت عليها خزانة كتب تفرقت بدداً، لا يعرف منها غير المجلد الخامس من تفسير القرآن المسمى «العيون والنكت» للماوردي، وهو ضمن خزانة آل باش أعيان العباسي في البصرة.ومن اللاتي وقفن كتباً كذلك فاطمة بنت حمد الفضيلي الحنبلي الزبيرية المعروفة بالشيخة الفضيلية، ولدت في الزبير قبل عام 1200هـ - 1786م ونشأت بها وقرأت على شيوخها، وكانت لها عناية بجمع الكتب مما مكنها من جمع كتب كثيرة في شتى الفنون، ثم تركت بلدتها الزبير ،وأقامت في مكة المكرمة، وحظيت بمكانة كبيرة بين علمائها، ومن أهم مآثرها، أنها وقفت جميع كتبها على طلبة العلم من الحنابلة وجعلت الناظر أحد معارفها وهو من بلدة الزبير الشيخ محمد الهديبي، وظلت الكتب لديه إلى أن قرر الانتقال إلى المدينة فتورع عن إخراجها من مكة ،فتركها عند خادمتها شائعة بنت النجار وأولادها ثم أرادت شائعة الخروج أيضا إلى المدينة، فأشير عليها بأن تبقي الكتب الموقوفة في مكة إلا أن أولادها قالوا: إن الواقفة لم تشترط ذلك فأخذوها معهم، وبعد وفاتهم تفرقت تلك الكتب، وكانت فاطمة الزبيرية قد توفيت في مكة المكرمة سنة 1247هـ/1831م[3].

والإمام السخاوي عند ترجمته: لفاطمة ابنة قانباي العمري الناصري فرج، ذكر أنّ أهم مآثرها وقف الكتب «...وعمرت بالقرب من درب الكافوري، وموقف المكارية داخل باب القنطرة ، مدرسة لطيفة تقام

86 -

1 - القرويين: جامعاً وجامعةً، د/ عبد الهادي التازي، ط. دار الكتاب اللبناني 1972 م - 1/111/.

2 - إسهام المرأة في وقف الكتب في منطقة نجد ـ رسالة ماجستير ـ إعداد د/.دلال بنت مخلد الحربي

3 - المرجع نفسه

فيها الجمعة ،شرعت فيها في أيام الظاهر جمقمق، ولكنها لم تكمل إلا بعد وعملت فيها درساً للحنفية، وقراءة حديث وتفسير، وغير ذلك، ووقفت بها كتباً»[1].

«... وشاركت بنتان لعوض بن محمد وهو من أهل حائل مع أمهما في وقف كتب كثيرة ورثنها عنه، وعادة ما يرد نص الوقف على ما وقفنه هكذا» وقف بنات عوض رقية وشما وأمهن على طلبة العلم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم، ويعود تاريخ الوقف إلى حوالي عام 1325هـ/1907م.

وفي سجل خاص محفوظ في مكتبة آل صالح البنيان بحائل سردت عناوين وقفيات بنتي عوض وأمهما، وهي كما يأتي: شرح صحيح مسلم للنووي، ومجمع البحار، وميزان الاعتدال، وشرح معاني الآثار وسنن الترمذي، وسنن ابن ماجه،وسنن الدارمي، وسيرة ابن هشام ،ومقدمة ابن خلدون، وكشف الغمة،ومتن النونية خط، وشرح السراجية، الرسالة القشرية، وسفر الهجرتين، وكتاب الإيمان لشيخ الإسلام، وكتاب المدهش لابن الجوزي في الوعظ، وحاشية الصبان مجلدين، ومجموع فيه عدة نسخ، ومجموع فيه ألفية العراقي، وشرح الشاطبية، وكتاب رحمة الأمة، والداء والدواء، وكتاب الصارم المنكي، والرسالة العزية، وعمدة الفقه وعمدة الأحكام،وشرح خلاصة الفرائض،وأسماء رجال صحيح البخاري، وشرح خالد للأزهري»[2].

المطلب الرابع: أوقاف مالية على طلبة العلم

كما وقّفت النساء المساجد والمدارس والكتب وقّفت كذلك أموالا على طلبة العلم والمعلمين والأيتام والفقراء الذين يرتادون هذه المدارس، وكان النظام في الوقف أن النساء لم يبنين المدارس كهياكل، بل عمرنّها بكل ما يحتاجه الطلاب والأساتذة. ومن صور ذلك تخصيص أجرة للقيم والمؤذن والإمام والمعلمين والمعيدين، وتوفير لطلبة العلم كل ما يحتاجونه من دور للمبيت وأكل وشرب وغيرها.

وقد شرطت ست الشام بنت نجم الدين، واقفة المدرسة الشامية الجوانية، توقيف بقية الأملاك لصالح المدرسة «... والباقي من الأملاك على مصالح المدرسة، وعلى الفقهاء والمتفقهة والمشتغلين بها...وعلى المؤذن بها والقيم المعد لكنسها ورشها وفرشه وتنظيفها وإيقاد مصابيحها يبدأ من ذلك بعمارة المدرسة وثمن الزيت ومصابيح وحصروبسط وقناديل وشمع وما فضل كان مصروفا إلى المدرس، وإلى الفقهاء والمتفقهة وإلى المؤذن والقيم...»[3].

1 - الضوء اللامع ـ السخاوي 14/86
2 - إسهام المرأة في وقف الكتب في منطقة نجد ـ د/.دلال بنت مخلد الحربي ـ ص123
3 - الدارس في تاريخ المدارس ـ 1/301 ـ 302 ـ فتاوى السبكي ـ تقي الدين ابن السبكي ـ تاريخ الإسلام 1 /4481 ـ أعلام النساء ـ عمر رضا كحالة 3/321

واشتهرت ابنة السلطان الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول، ت695هـ/1296م، بحب الخير، فكانت ذات صدقة ومعروف، ومآثرها كثيرة منها: المدرسة المعروفة بالشمسية، بالدار الشمسي بذي عدينة من مدينة تعز، لها وقف جيد على إمام ومؤذن وقيم ومدرس وطلبة ومعلم وأيتام يتعلمون القرآن، وابتنت مدرسة في زبيد معروفة بالشمسية أيضا؛ أوقفت عليها أيضا، وقفاً جيداً بكفاية المرتبين فيها)[1].

هذه بعض الأمثلة القليلة جدا، من مآثر نساء خالدات رائدات في العلم والوعي والخير لقد عرفن دورهن خير المعرفة ووعين رسالتهن الحضارية، لم يقصرن سواء أكن في القصور أميرات وملكات أم كن صاحبات مال وغنى أم كن فقيرات كل ساهم من مركزه وحسب مقدوره والصور كثيرة جدا والبحوث ما زالت لم تلم بجميع الجوانب.

المبحث السادس: أسباب تدهور وتخلف المرأة في العلوم والخدمة الإنسانية

وفي الأخير ما زلت أشكك كباحثة في قلة النساء، أو خلو بعض العصور والأزمنة من النساء العالمات والمعلمات والمتعلمات في شتى مجالات الحياة وخاصة خلو المصنفات النسائية أو قلتها أو انعدامها، فقد يكون السبب:

1 ـ الأعراف التي سادت الأقطار الإسلامية وتعتبر المرأة أول المتضررين منها.

2 ـ كثرة الحروب والغزوات التتارية والصليبية على البلدان الإسلامية، والاستعمار فيما بعد الذي ساهم في تقلص الدور الايجابي للمرأة.

3 ـ فتاوى وأحكام تمنع النساء من التعلم والخروج إلى المساجد، وإذا قمن بالتعلم والتعليم والتصنيف ،فليس هناك من ينقل أخبارهن، لعدم وصول المؤرخين إليهن ، بسبب عدم الاختلاط في المجتمع الإسلامي.

المطلب الأول: كثرة الحروب والفتن

إن الباحث في الكثير من مراحل التاريخ الإسلامي يلاحظ غياب المرأة التام عن الحياة العامة.والسبب لا يكمن فقط بطبيعة العقلية الرجالية المسيطرة التي يذهب إليها الكثيرون بل أساسا بسبب صعوبة الحياة وكثرة الكوارث من حروب واجتياحات أجنبية، وغزوات بدوية، وفتن ومعارك داخلية، وفيضانات كاسحة،

1 - إسهام المرأة في وقف الكتب في منطقة نجد ـ د/.دلال بنت مخلد الحربي ـ ص213

وطواعين مدمرة. كل هذه الأوضاع المضطربة والقاسية لم تكن تسمح الا بسيطرة الفحولة ومنطق القوة، فيتراجع منطق الأنوثة، وانزوت المرأة بعيدا عن الحياة العامة.

وقد أكثرت كتب التاريخ من ذكر أحداث مأساوية مرت على الأمة الإسلامية، داخلية وخارجية، مشرقا ومغربا، يؤرخ الطبري لفترة الأمين بن هارون الرشيد فيقول: « وفتن الناس،ووثب على أهل الصلاح، الدعار والشطار، فعز الفاجر وذل المؤمن واختل الصالح وساءت حال الناس إلا من كان في عسكر طاهر لتفقده أمرهم وأخذه على أيدي سفهائهم وفساقهم، واشتد في ذلك عليهم، وغادى القتال وراوحه حتى تواكل الفريقان، وخربت الدار»[1].

وهذا نص آخر لابن خلدون يوضح فيه ما حصل في التاريخ من فتن، وحروب التي كانت أحد أسباب اعتزال النساء الحياة العامة. «... وتقلص ظل الدولة فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف إليها الديلم وملكوها وصارت الخلائق في حكمهم ثم انقرض أمرهم وملك السلجوقية من بعدهم، فصاروا في حكمهم، ثم انقرض أمرهم، وزحف آخر للتتار فقتلوا الخليفة، ومحوا رسم الدولة. وكذا صنهاجة بالمغرب فسدت عصبيتهم منذ المائة الخامسة أو ما قبلها، واستمرت لهم الدولة متقلصة الظل بالمهدية وبجاية والقلعة، وسائر ثغور إفريقية وربما انتزى بتلك الثغور من نازعهم الملك ،واعتصم فيها والسلطان والملك مع ذلك مسلم لهم حتى يأذن الله بانقراض الدولة ،و جاء الموحدون بقوة قوية من العصبية في المصامدة، فمحوا آثارهم.وكذا دولة بني أمية بالأندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها، واقتسموا خطتها، وتنافسوا بينهم، وتوزعوا ممالك الدولة...»[2].

المطلب الثاني: تفضيل الأمومة عن غيرها من المهام

سبق الكلام عن هذه القضية في المبحث الأول،وأن الأمومة ساهمت بشكل كبير في إعداد العلماء والمفكرين، والخدمة الإنسانية بعنصر الإنسان،الصالح ،الفعال، الحضاري. وهذه المهمة النبيلة لاشك أنها تأخذ من المرأة جهدا ووقتا، وبالتالي تعوقها عن التفرغ لطلب العلم والمعرفة والخدمة الإنسانية لأن هذا العمل كذلك يتطلب جهدا ووقتا.فآثرت المرأة المسلمة دور الأمومة عن غيره من الأدوار. «...والاهتمام بدور المرأة العاملة (البرانية) مع إهمال دور المرأة الأم (الجوانية)... وهكذا تغلغلت المرجعية المادية، (بتركيزها على الكمي والبراني)، وتراجعت المرجعية الإنسانية (بتركيزها على الكيفي والجواني) الأمومة

1 - تاريخ الطبري - 5 / 72
2 - تاريخ ابن خلدون - 1 / 194.

أهم الأعمال المنتجة، وماذا يمكن أن يكون أكثر أهمية من تحويل الطفل الطبيعي إلى إنسان اجتماعي؟ ولكن ما يهمنا هنا أنه شكل من أشكال علاقات الإنتاج، التي لا تقوض الأسرة وتفككها، ويمكن للمرأة أن تشارك فيه، دون أن تفقد هويتها كأم وزوجة. ويمكن أيضًا تطوير نظم تعليمية جديدة، بحيث يمكن للمرأة أن تتعلم وتستمر في تعليمها دون أن نولد داخلها التوترات بين الرغبة المحمودة في التعليم والنزعة الكونية نحو الأمومة بمساعدة التكنولوجيا وتحويلها إلى تكنولوجيا مساندة للأسرة»[1].

المطلب الثالث : فتاوى وآراء مجحفة بحق المرأة

هناك آراء فقهية، وفتاوى لبعض العلماء ساهمت بشكل كبير في تدهور حالة المرأة وابتعادها عن أداء دورها الرسالي داخل وخارج بيتها.

ومنها التمسك ببعض الآثار الضعيفة والموضوعة التي تمنع المرأة من تعلم الكتابة مثلا، وأدى ذلك إلى تزايد عدد النساء الأميات في الوطن العربي بنسب عالية جدا. فعن عائشة رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله : لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة ـ يعني النساء ـ وعلموهن المغزل وسورة النور)[2]

ومن الفتاوى التي اشتهرت خلال القرن 19هـ ،ما كتبه خير الدين نعمان الألوسي، الذي في كتابه «الإصابة في منع النساء من الكتابة» يقول: «فاللبيب من الرجال هو من ترك زوجته في حالة من الجهل والعمي، فهو أصلح لهن وأنفع،لأن حصولهن على ملكة الكتابة هو من أعظم وسائل الشر والفساد. !!».

ولذلك كانت نساء الطبقة الغنية يبالغن في التزين وشراء، الملابس وخياطتها، وفي عقد مجالس السمر النسوية، فيما كانت نساء الطبقات الأخرى يمارسن الغزل والحياكة. لكن المرأة كانت أيضا تقوم بمساعدة الرجل في الزراعة والري ،أو في رعي الغنم كما في المناطق الريفية والبدوية.ولم تكن النساء يتعلمن الكتابة والقراءة، ومن ذلك الوقت والنساء في هذه الأمة تعاني الكثير منهن قلة التعليم.

المطلب الرابع: أعراف وتقاليد أخلت بإسهام المرأة في العلوم

لقد لعبت الأعراف والعادات في المجتمعات الإسلامية، دورا كبيرا في اضطراب وتراجع وظيفة المرأة الإجتماعية، ومشاركتها في بناء الحضارة، بعد العصور الزاهرة التي كان لها فيها حضور قوي وفعال من غير إخلال بآداب الإسلام ولا بضوابط الشرع.

1 ـ النسوية التمركز حول الأنثى ـ مقال ـ عبد الوهاب المسيري
2 ـ أخرجه الحاكم في المستدرك ـ 2 / 430 وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
قال الذهبي قي التلخيص: بل موضوع ـ وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ـ 6/ 34 ـ والشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة ـ 5 / 30 وقال: موضوع

وقد تسببت الأعراف والعادات في انعزال المرأة عن المشاركة الميدانية في مختلف المناحي الإجتماعية.وأصبح السمت الغالب على طبقات المجتمع ندرة مشاركة النساء في المجالات الإجتماعية المختلفة أو عدمها مطلقاً. ولزومهن البيوت، وعدم الخروج إلى المساجد وتعلم الكتابة والقراءة، وكل ذلك يلصق بالدين ظاهرا ،وبالعرف حقيقة، فقد فسر الكثير من الفقهاء النصوص الخاصة بالمرأة، حسب العرف الذي يعيشونه، والظرف المكاني والزماني لذلك.

« لقد جاءت تلك الاجتهادات والآراء، مرآة صادقة لواقع عاشه هؤلاء العلماء الأجلاء ـ رحمهم الله ـ . فلم يكن المجتهد آنذاك، إلا انعكاساً لما يجري في مجتمعه. فالمرأة كانت بعيدة كل البعد عن المشاركة في المجتمع، والنزول في ميادينه المختلفة، فجاء القول بالمنع موافقاً لأمر ساد في تلك الأجواء والأزمنة»[1].

كما كانت الأعراف سببا في منع المرأة من المشاركة الإجتماعية، والمساهمة في بناء الحضارة بعلمها وفكرها، قد تكون الأعراف كذلك سببا في عدم شهرتها، إذا كانت تقوم بهذا العمل ـ التعلّم ،التعليم ،التربية،الوقف ـ بعيد عن الأنظار، في بيتها مثلا،أو في محيطها الصغير بين النساء، فلا يصل إليها المؤرخ الرجل،أو صاحب الطبقات لأن الوضع السائد لا يسمح بذلك ،أو ليس لأحد من محارمها أن يذكرها في مجلس العلم، ويسند إليها قولا أو رأيا.

كما فعل ذلك رجال السلف الصالح من الصحابة والتابعين وغيرهم، فقد اشتهرت نساء السلف الصالح بعلمهن عبر محارمهن، الذين كانوا يسندون إليهن الحديث والفتوى وغيره، واشتهرت نساء السلاطين وبناتهم عبر الجواري،أو المؤرخ القريب من السلطان. فالأعراف حرمت المرأة المسلمة الحرة من أن تتعلم، وحرمتها من أن تبرز اجتماعيا، وحرمتها من أن يؤرخ لها بشكل موسع، فامتلأت كتب التاريخ بأخبار الجواري أكثر من غيرهن.

1 ـ أثر العرف في فهم النصوص(قضايا المرأة أنموذجا) ـ رقية طه جابر العلواني ـ رسالة دكتوراه دار الفكر ـ 2004م ص 64.

الخـاتمـة :

كانت العلوم والفنون صناعة إسلامية أصيلة، مستندها نصـوص القرآن الكريم، والسنة النبوية. لقد حث القرآن على التعلم وطلب العلم، وحرص الرسول الأمي الذي حمل هذا القرآن على تعليم أمته وتربيتها، وللعلم في الإسلام أهداف كثيرة؛ فبه يطاع الله ـ عز وجل ـ وبه تعمر الأرض ،و به يسعد الإنسان ويحقق الخلافة والبناء الحضاري والتقدم لنفسه ولأمته. وانطلاقا من كل هذه المبادئ، كان للمرأة المـسلمة الإنسان دور فعال في تاريخية العلوم، وبناء الحضارة، وخدمة الإنسانية، بأمومتها، وعلمها ،وتعلمها، وأوقافها. وحققت سبقا تاريخيا كبـيرا عن غيرها من النساء في الحضارات الأخـرى، وخاصة الحضارة الغربية. ولما كان للعالم الإسـلامي كبوات كثيرة، والمرأة جزء من هذا الكيان الذي مرض فاعتراها ما اعتراه من تخلف وجهل. وقد تكون أكثر ضررا لأنها عوملت زيادة على هذا التخلف السائد بالأعراف والعـادات والأمزجة الفاسدة في أكثر الأحوال فازداد ضعفها وزالت هـويتها وفعاليتها وأصـبحت تلهث هنا وهناك لعلها تلقى حلا أو مخرجا لما هي فيه ،فهناك من استسلمت لوضعها، وهناك من طالبت بحقوقها من خارج حضارتها، وهناك من لم تلق مخرجا إلا تقليد غيرها في القشور والمظاهر. فزيادة اهتمام وتشجيع من العلماء والحكام لتفعيل دور المرأة العلمي خاصة ،والخيري عامة، لتعود إلى صناعة الحضارة الغائبة، وإعـادة ذلك الأمل العـزيز الغالي الذي هو سيادة وريادة الإسلام والمسلمين.